مباحث أمـن الوطن

مباحث أمـن الوطن

روايـــــة

د / محمـــد عبـــاس

مباحث أمـن الوطـن
روايـــة

اسم الكاتب: د / محمد عباس
تدقيق لغوي: فريق المراجعة بالمكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الثانية
رقم الإيداع: ١٤٩٩٦ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهداء أول

إلى الذين كانت جهودهم وممارساتهم هي الركيزة الأساسية لما لحق بالأمة من هزائم... ومن تخلف... ومن هوان .

إهداء ثان

إلي العالم المتحضر... الذي حوّل - بمعاييره المزدوجة - الدنيا إلى سعيروحشي الجنون . .

إهداء ثالث

إلي الضحايا... .

إهداء رابع

إلي القارئ ... ذلك المُدان... بالتواطؤ أحيانا... وبالجهل أحيانا... وبالصمت دائماً... .

(١)

يختلج قلبي رعباً...

فمنذ استدعاء مباحث أمن الوطن لي و أنا لا أستقر علي حال... قرأت الورقة مائة مرة... ثم أعدت قراءتها مائة مرة أخري... فربما أكون قد سهوت عن معني كلمة... عن حرف... عن نقطة قد تغير معني...

"المهندس علي هاشم، مطلوب لمقابلة اللواء حسين بركة، مباحث أمن الوطن صباح باكر الخميس"

لا تاريخ ولا توقيت... قصاصة من الورق الأصفر الرخيص... أقلبها بين يدي . لعل شيئا مدونا علي الجانب الآخر يعطيني بصيص نور... يطفئ لهيب القلق داخلي...

في الصباح... لم أكن قد انتهيت بعد من اجتماعي بأعضاء مجالس إدارات شركاتي... أثناء مناقشتي معهم لتفاصيل الأعمال دخل السكرتير عليّ فواجهته بنظرة مندهشة...

عودته أن لا يشتت انتباهي أثناء الاجتماعات فقد أنسي فكرة أو أسهو عن الأمر بعمل أو يفلت مني من نويت عقابه... تعود أن لا يقاطعني إلا في الضرورات القصوى... آخر مرة قاطعني فيها كان يوم الزلزال...

همس في أذني :

- هناك ضيف أدخلته في الغرفة الملحقة بالمكتب . أرجو أن تقابله الآن . علي الفور .

رمقته بنظرة نارية :

- الآن ... وعلي الفور ؟! . من هو . . رئيس الوزراء!! أم رئيس الجمهورية شخصيا ؟!

ابتلع - كالعادة - سخريتي وواصل همسه :

- صول بـ...

غلى الدم في عروقي لمقاطعة الأحمق لي حتى أقابل صولا وهو الذي يعلم جيداً أن عشرات العمداء واللواءات ومديرين ووكلاء وزارات ومندوبين لعشرات المنظمات قد انصرفوا من مكتبي دون أن أقابلهم ... كدت أصرخ في وجهه بسباب قبيح لكنه واصل قائلا :

- ... بـ..... بمباحث أمن الوطن .

انحشرت الصرخة في حلقي ... لدي القدرة علي الاحتفاظ بملامحي جامدة حتى لو أمطرتني السماء بالصواعق والشهب... خشيت أن يسمع الحاضرون شيئا فصرفته آمرا بأن ينتظر الضيف ريثما يتناول تحيته...

كان قلبي يرتجف... وبرغم ذلك استمر الاجتماع... التقطت أذني خشونة مفاجئة في صوتي كما لو كنت قد أصبت بنزلة برد... علامة من علامات التوتر أعرفها... ركزت أفكاري كي لا يدرك الحاضرون ارتباكي... وضعي في المجتمع هو إما أن أكون مفترسا أو أن أكون الفريسة... إما أن أدوس وإما أن أداس... في اللحظة التي تبدو فيها مني علامة ضعف أو خوف أو تردد سوف أنتهي... لذلك حرصت علي أن أبدو قويا ... أن ألغي الفكرة المخيفة داخلي أن بالغرفة الصغيرة المجاورة مخلب وحش يكاد يتلقفني... لماذا؟ لست أدري... استكملت ما كان قد أثير لكنني لم أفتح الموضوعات التي لم يكونوا يتوقعونها اليوم وكنت أنوي مفاجأتهم بها...

تعمدت أن أبدو متراخيا... كأن أمامي متسعا من الوقت... كأنني غير متعجل للقاء الضيف... فربما تكون أذن أحدهم قد التقطت من همسة السكرتير كلمة ... حرصت علي أن ينتهي الاجتماع بصورة تبدو لهم طبيعية... بعد انصراف مكثت برهة أرتب أفكاري...

الغرفة الملحقة بالمكتب أنيقة لكنها لا تبهر الزائر بفخامتها مثل هذا المكتب... عليه أن يأتيني هنا... لا أعرف هذا الصنف من الناس... لكن من المؤكد أنه مثل الجميع... سيشعر أمام فخامة الأثاث وعظمة الديكور بنوع من الهيبة والتبجيل... ولا شك أنه سينقل شعوره ذلك لمن أرسلوه... طلبت من السكرتير أن يأذن له بالدخول...

جلست في مكتبي شامخا ومهيبا...

لمحته بطرف عيني وهو يدخل... لم أقم من مكاني... تصنعت أن الأمر لا يهمني... أنني غير مبال... مهما كان فليس سوي موظف بسيط حتى لو كان يعمل في مباحث أمن الوطن...

تشاغلت بأوراقي علي المكتب... لم يفتني في نظرتي المختلسة له أن ألم بكل تفاصيله... وجهه الأسمر... جسمه الضخم في غير ترهل... بنيانه القوي كهيكل خرساني...ملامحه الشمعية وملابسه المدنية... بدا لي جزءا من وحش خرافي لديه القدرة علي التشكل بملامح بشرية ليسير بين الناس باحثا عن فريسة فإذا وجدها خدرها بمعسول الكلام حتى يسحبها إلي كهفه فيتحول هناك إلي هيئته الحقيقية لينهشها... عندما وقف أمام المكتب اصطك كعبا حذائه في تحية عسكرية ربما دفعته إليها هيبة المكان أو مجرد العادة... لم أسلم عليه... لا يليق بمثلي أن يسلم علي مثله... نظرت نحوه مستطلعا بهزة من رأسي... حرصت فيها أن لا أرفع كلفة ولا أثير حفيظة...

مد يده بالورقة الرثة التي تخلو منها حتى سلة قمامتى... تناقضت الورقة تناقضا صارخا مع رونق المكان... :

"المهندس علي هاشم، مطلوب لمقابلة اللواء حسين بركة، مباحث أمن الوطن صباح باكر الخميس"

انسكبت نفسي لهفة أن أعرف المزيد فسألته :

- من هو اللواء حسين بركة ؟

- الباشا عندنا في المكتب .

خيل إلي أنه أخفي دهشة عظيمة لأنني لا أعرف الباشا ودهشة أعظم لأنني جرؤت علي التصريح بأنني لا أعرفه... لم يفتني أنا الآخر إدراك مغزى رده: الباشا عندنا...

ألف معني يكمن في الجملة البسيطة لكن المجال لا يتسع الآن كي أطرحها داخل عقلي... سألته :

- لماذا يريدني سيادته ؟

أجاب في جمود كأنه جهاز تسجيل مبرمج للرد علي المكالمات التليفونية:

- لا أعرف...

لو أنه حتى قال لي الكلمة المأثورة أنه يريدني خمس دقائق علي فنجان من القهوة... لم تكن الكلمة لتخدعني لكنها كانت ستريحني ... نظرت إلي ملامحه الصامتة الخرساء وحاولت قراءتها فلم تبح بشيء... تمنيت لو أنني كنت قد تبسطت معه في الحديث... لو أنني صافحته... أو دعوته للجلوس... لأمكن الآن أن أطلب له مشروبا آخر وأن أقدم له سيجارة تفك عقدة لسانه... ضاعت الفرصة التي أبداً لا تلوح إلا كلمح البصر...

- هل تريد أن تسأل عن شيء ؟

قالها وهو يتأهب للانصراف ... . ولأنني أعرف مغبة الذهاب إلي مكان مثل هذا المكان يوم الخميس فقد قلت دون تفكير لأمنح نفسي فرصة للتفكير:

- لم أراجع جدول مواعيدي بعد... ولا أعرف إن كان هناك لدي وقت غدا... فهل يمكن أن يؤجل الموعد للأسبوع القادم... الأحد أو الاثنين مثلا...

نظر إلي في جمود تحول إلي دهشة تحولت إلي استنكار و أجاب بصوت معدني :

- طلبوا مني أن أسلمك الإخطار شخصيا... ولقد أخليت مسئوليتي وسلمته .

يبدو أنك كنت صادقا يا دكتور ناجي... الصول هو أكبر وظيفة في العالم ... حاولت رسم ابتسامة و أنا أقول له :

- هل يمكن أن أكتب رسالة اعتذار لسيادة اللواء حسين بركة عن ميعاد الغد طالبا تحديد موعد آخر؟.

- لم يطلبوا مني أن آخذ منك ردا .

انقبضت ملامحه ... خيل لي أنه سيخرج فورا من تشكيله البشري عملاق هائل يمد يده يعتصرني بين أصابعه ثم يطوح بي في الفضاء بدقة أسطورية لأجد نفسي ملقي أمام مكتب سيادة اللواء حسين بركة .

بدا عليه التردد قليلا كما لو كان سيكشف عن سر خطير ليس مصرحا له أن يبوح به :

- من لا يأتي يأتون به...

كادت تطفح من عيني نظرة استجداء أن يفصح ولو قليلا... أن تشي ملامحه بشيء... أن يصرح أو يلمح أو يحذر أو يرشدني إلي طريق النجاة ... هذا الموظف البسيط... قد لا يعرف أي شيء وقد يكون كل شيء... الباشا

عندنا... هو الثابت الراسخ الباقي أما الباشوات فيأتون ويذهبون... هفت نفسي لأن تتضرع إليه... ترجوه... ترشوه... جال بخاطري أن أغريه... أن أبدي - أنا الذي لا أعرفه - إعجابي به وبكفاءته... ليس هناك إنسان في الوجود لا تدفعه كلمة إطراء إلي تغيير مواقفه... فهل أعده بتعيينه مديرا للأمن في إحدى شركاتي بعد تقاعده... بل الآن... لكنني لو عرضت ورفض لكانت الطامة طامتين... أنا علي حافة الهاوية فلا داعي لحركة مفاجئة... تمالكت نفسي فصرفته بعد أن عرفت العنوان منه... ألقي بذرة الشك في نفسي وذهب... تنامت البذرة كنباتات شيطانية فاستحالت غابة من الهواجس والهموم... استدعيت السكرتير:

- هل تعرف هذا الرجل ؟

- لا ... ...

قاطعة مفردة ذابحة تصدني عن أي محاولة للمواصلة أو التواصل... ما أشد سخافة سؤالي... حري به أن يحتقر تهافتي وأن يدرك رعبي .

- ولا اللواء حسين بركة ؟.

- لا... ...

اختلقت موضوعا أسأله عما أنجزه فيه... كأنني استدعيته من أجله . لكن شفتيه انفرجتا عن شبح ابتسامة سرعان ما أخفاها... إنه لا يصدقني... كما أن محاولتي الساذجة لخداعه لم تنطل عليه . ... .وثمة معني يقفز من داخله إلي داخلي دونما حاجة إلي وساطة الصوت أو ترجمة الكلمات :

" أعرف أنك مرعوب مهما حاولت إخفاء ذلك ، أنا شامت بك ، فلطالما أرعبتني "...

بعد انصرافه من أمامي أخذت أحاول قتل الوقت... الوقت عندما يصبح عدوًا... غولاً أو وحشاً ينهش فيّ... يتسلل مع الهواء إلى الجوف ثم يتسرب من الجوف إلى الدم فينتشر من العروق إلي الخلايا... يدخل كل خلية ينهشها من الداخل... ... ذلك النهش البطيء المنتظم المستمر اللامرئي الذي يترك الغلاف الخارجي سليماً ويدمر الداخل...يحفظ المظهر ويخرب الجوهر.

لا أدري كيف مر علي الصباح... حاولت أن أشغل نفسي في الظهيرة بعشرات المشاغل والمشاكل والمكالمات التليفونية... مررت علي مواقع المشروعات... عاينت بنفسي بعض هذه المشروعات... تعود المهندسون علي هذه المفاجآت مني لكن هذا التعود لم يقلل رعبهم... عادة طيبة أن لا تكون للإنسان عادات ثابتة... ألا أدع الآخرين يقرءون ما بداخلي من ملامحي... انصرمت ساعات مديدة . ... وبرغم ذلك مازال يبقي من الوقت عشرون ساعة حتى أعرف ... حتى ينفثئ قلقي و أهدأ... لو أن نيابة المرور هي التي استدعتني لكفتنيها إدارة مكتبي حتى دون أن أعلم... ولو أنها النيابة العامة لأدركت أنها مخالفة من مئات المخالفات التي تقوم أجهزتي القانونية بحلها دون إغراقي بالتفاصيل... بهدية هنا ومكالمة مسئول هناك ... بحفل تبدو الدعوة إليه كما لو كانت عفو الخاطر ولقاء تحاك تفاصيله كما لو كان مصادفة فإن لم يُجْدِ كل ذلك يرفعون الأمر إليّ حيث تكفي مكالمة أو مجاملة أو حتى تهديد في بعض الأحيان... لو أنها نيابة الأموال العامة لوردت لخاطري بعض الأمور كالاستيراد والتصدير ومشاكل تدبير العملة الصعبة ولأمكن للمحامين حلها دون مباشرة مني... لكن ... مباحث أمن الوطن... مرة واحدة مباحث أمن الوطن!...

ومع من... معي أنا... لا أقرأ صحيفة ولا أسمع نشرة أخبار... لا عن جهل ولا انصراف ولا عزوف بل لأنني ككل أصحابي ومعارفي قد أدركنا منذ زمان طويل أن نشرات الأخبار والصحف كالملابس و أدوات الزينة... تستر وتخفي وتموه وتبرر وأنها لا تذكر الحقيقة أبدا... أنها غذاء الرعاع وعزاء الدهماء و أملهم الذي لا يتحقق... الأخبار الحقيقية أعرفها من لسان مسئول أو علي شفتي غانية أو أثناء رحلاتي ولقاءاتي في الخارج... . ولأنني أعرف ذلك لم أنتم لحزب قط... ولا حتى الحزب الذي يحكم... لا عن رفض... بل لأنني أدرك أن حزب الحكومة يمتلئ بالحيتان ولم أشأ أن أدخل نفسي في الصراع بينهم ... فضلت أن أكون من الخارج صديقا للجميع... أحزاب المعارضة لا تناسب رجل أعمال مثلي... بل إنني - و أقسم - لا أعرف من الأحزاب الموجودة إلا حزبا أو حزبين.

فـي تعاملاتي التجارية اقتصرت علي الدول الصديقة دائماً... ابتعدت عن مواطن الشبهات وسعيت إلي العلاقات المستقرة... أما دول الرفض أو الضد فقد قاطعتها حتى بعد أن أنهت الحكومة مقاطعتها لها فمن يدري ماذا يأتي به الغد .. كنت قد تعلمت من تجاربي ..قبل أن أكون حاذقا كنت أميل حيث تميل الدولة فأصادق من تصادقه و أعادي من تعاديه لكن ذلك لم ينقذني من خسارات فادحة حين كانت الدولة تقلب سياستها دون أسباب واضحة... فيتحول العدو إلي حبيب والصديق إلي خائن ... ... عندما نضجت وعرفت أن الصداقة ليست صداقة كما أن العداوة ليست عداوة و رأيت الأصابع التي تحرك القطع لم أعد أندهش لاضطراب رقعة الشطرنج ذلك الاضطراب الذي يبدو أمام من لا يعرف الحقائق دون منطق ... .. أدركت رغم علمي بدقائق الأمور أن الحرص في كل الأحوال آمن... أنا رجل أعمال لا يهمني من العلاقات السياسية إلا ما يتعلق بأعمالي... لا يحتمل الاقتصاد مراهقة

السياسة... العمل عمل... من أجل ذلك بحثت دائماً عن العلاقات المستقرة... عن الدول التي لم يتغير فيها شئ ولا يتوقع أن يتغير فيها شئ ... عملت كثيراً وفتح الله علي... جمعت مالا بعمل... بعرق الجبين... بحبات الدم المحترقة في ... .. بأعصاب استهلكتها... وهنا أو في الخارج لم أتحدث في السياسة قط... تجنبت حتى معرفة السياسيين إلا من لهم علاقة مباشرة بتسهيل أعمالي أو حل مشاكلي... في عمليات المناقصات تجنبت دائماً مناقصات وزارة الدفاع أو حتى الداخلية... فلست أنسي ما حدث ذات مرة عندما تسربت بعض الرسوم الهندسية الخاصة بوزارة الدفاع من مكتب أكبر مقاول في البلد فألقي القبض عليه علي الفور وكاد يتهم بالخيانة العظمي كي يحكم عليه بالإعدام لولا أن الله ستر... حاولوا معي كثيراً وهم يغرونني بأن مناقصات الجيش في أي مكان في العالم هي الدجاجة التي تبيض ذهبا حيث يدور كل شيء في طي الكتمان... أفضل جو للمقاولات... حاولوا معي كثيراً لكن عزمي لم يلن... صارحوني بأن الحادث الذي أبني عليه رفضي له ظروفه الخاصة... وأن ابن أخت هذا المقاول هو الذي سرق منه الرسوم... و أنه كان جاسوساً لإسرائيل زمن الحرب... و أنه اعترف بذلك قبل أن يعدم... وأنهم لم يفعلوا للمقاول شيئا... بل إن الله فتح عليه بعد ذلك ليصبح الملياردير الأول في الوطن... حدث ذلك بعد أن أصبح صهرا للرئيس ونائبا لرئيس الوزراء.

كنت أقول لنفسي أن كل هذا صحيح لكنه الاستثناء لا القاعدة... وقد كان يمكن أن يعدم هو الآخر ليضيع دمه غدرا أمام جهاز الأمن الهائل الذي لا قبل لأحد بمواجهته أو التفاهم معه... لا يوجد إلا الأمر و الإجابة... لا مجال للتفكير والاعتراض والحوار والمناقشة... عندما يضغطون علي الزناد فإن الرصاصة تنطلق... ليس للرصاصة حق في التفكير والاعتراض والحوار والمناقشة...

الرصاصة التي لا تنطلق علي الفور رصاصة فاسدة تعدم علي الفور... تعودوا علي ذلك ولست بالنسبة لهم سوي رصاصة... هل لاحظت ذلك الغول المتنكر في إهاب بشري عندما طلبت منه تأجيل موعد الغد... لو أنني طلبت منه تأجيل موعد الحج شهرا أو شهرين لما كان أكثر دهشة و ذهولا... لو أنني طلبت منه تغيير مو اقيت الصلاة لما أبدى أي اعتراض... أما تأجيل الموعد مع اللواء حسين بركة فأسهل منه تأجيل موعد الموت... لذلك حرصت دائما علي تجنبهم... أغلق دائما مصادر الرياح والقلق.

كبر سني ولم أعد أحتمل التوتر... أحتاج للهدوء... أحج كل عام مرة وأعتمر مرتين أغسل بها ذنوب العام و أنجز منافع للدين والدنيا.

أموالي لا أستطيع لها عدا... توطدت مكانتي... لكنني حريص علي أن لا تتشعب علاقتي الاجتماعية بأكثر مما تحتاجه أعمالي... مثلي مطمع... كل علاقة جديدة تحمل في طياتها طمعا من الآخر... فإن لم أكن سآخذ منه أكثر مما أعطيه فلا حاجة لي به...

بنيت عمارات وقصورا وقري سياحية و أنشأت مصانع... اقترضت من البنوك لكني لم أتعثر في سداد قرض... استوردت من الخارج وصدّرت... أحاسب الضرائب بانتظام... وضعي المالي رائع والثقة في أعمالي متوفرة... أموالي تحل مشاكلي... إلا هذه الداهية السوداء التي دهمتني اليوم... مباحث أمن الوطن...

(٢)

عدت إلي مكتبي وسط المدينة... أجلت المرور علي برج النيل... زهرة أعمالي إلي المساء... دون تفكير تقريبا طلبت اللواء ميسور ماضي... كيف لم أفكر في طلبه قبل الآن... إنه كفيل بحل الأمر برمته...عينته في مؤسستي منذ عامين... راتبه خمسة آلاف دولار شهريا غير الحوافز والمناسبات والمهام الخاصة التي تصل بدخله من خلالي إلي أضعاف هذا الرقم ... لكنه يأخذ الآلاف فيوفر الملايين بنفوذه ومركزه... أيامها تنافس علي المنصب عندي أكثر من وزير سابق... لكنني كنت أدرك كم تهاوت سمعتهم وبتهاوي سمعتهم لم يعد لهم مركز ولا قيمة... أما ميسور فما يزال في الصورة بشكل ما... مركزه وسلطته ما زالا في يده فليس من المغضوب عليهم... سمعته لم تلوث بعد (عادة لا تلوث السمعة ولا تفجر الفضائح إلا بعد ترك الوظيفة أو تغير النظام برمته).

ثم أن لي به سابق معرفة... معي أرقام تليفوناته الخاصة... حتى ذلك التليفون من النوع الحديث الذي لا يمكن متابعته أو تسجيل مكالماته والذي يحمله معه أينما ذهب... سجلته في ذاكرة تليفوني حتى أنني أضغط علي رقم واحد فيرد هو علي الفور... لا تدخل من سكرتير أو مدير مكتب يكشف العلاقة بيني وبينه... كنت أستعمله في البداية بحرية... أفضله علي كافة أرقامه الأخرى فمن خلاله أينما يكون أجده..

لكنه في الفترة الأخيرة طلب مني أن أقتصر في استعماله علي الضرورات القصوى... وعندما لمح علي ملامحي علامات الدهشة والاستياء فسر لي الأمر أن وزارة الداخلية قد تمكنت من اختراق شفرة هذا النوع من التليفونات ثم

تلتها جماعات الإرهاب فقد نجحت بطريقة ما في التنصت علي مثل هذه التليفونات... و أن ذلك يحمل خطرا مزدوجا علي حياته من ناحية حيث يمكن لهم رصد تحركاته لاغتياله... ثم الخطر الآخر لافتضاح أسرارنا... من يومها لم أطلبه عليه... لكنني الآن مضطر فجميع أرقامه الأخرى مشغولة أو لا ترد... ثم أنه لا توجد ضرورة قصوى أكثر مما أنا فيه... مباحث أمن الوطن.

بدأت أحكي له الأمر... حل في داخلي إحساس بالفرح و أنا أحكي له... سيحل المشكلة كما حل كل مشكلة أوكلتها إليه... وأغلب الظن أنني لن أذهب إلى مباحث أمن الوطن... أو أنني إذا ذهبت سأقابل بما يليق بي...

لكن... ماله صامت لا تبدر منه بادرة... فقط ذلك الصوت الذي يخرج من الأنف والشفتين المنطبقتين :

- إم... إم م... إم م...

ثم أنهي المكالمة قبل أن أبثه كل ما بي... وعدني أنه سيعيد الاتصال بي ففهمت أن بجواره من لا يريد الحديث أمامه... انتظرت... لكنه لم يطلب... هل كان من الحكمة أن أفضي له بسري... أن أدعه يراني هلوعا... فزعا.. أن أسقط في عينيه من مكان ولي النعمة إلي مكان المستنجد... أعرف هذا الصنف من الناس...إنه خدوم جدا وأرستقراطي ومهذب طالما احتاجك... أما إذا احتجته أنت فليس ثمة أحط ولا أخس منه... طلبته كي يخفف قلقي... كي يطمئنني... كي يضحك مستخفا بانزعاجي

راجيا أن لا أفكر بالأمر مرة أخري... لكن التليفون صامت... منْ مِنَ الآخرين يمكنني أن أستنجد به فينجدني... أن لا يستغل الفرصة للتشهير والفضيحة أو حتى للابتزاز والنصب.

مباحث أمن الوطن... !!

أسوأ حتى من بوليس الآداب...

لو أن الاستدعاء كان من بوليس الآداب لظننت أنها إحدى صلاتي القديمة قبل أن يهديني الله... لكان الأمر هينا... لا يؤثر علي عمل ولا يهدد مستقبلا... وحتى لو عرفه الناس فسرعان ما تنسي الفضيحة وسط ملايين الفضائح... أما مباحث أمن الوطن فوصمة عار أبد الدهر... تظل تطارد الإنسان في رزقه ومستقبل وعلاقاته طول حياته بل وبعد موته تظل تطارد أبناءه...

لا أنسي تلك الواقعة التي حدثت منذ أكثر من ثلاثين عاما... مشيت في جنازة بالصدفة !! كنت أحتاج صديقا في شأن نسيت تفاصيله فذهبت إليه... لم أكن قد كبرت هكذا فكنت أذهب إلي من أريد... الآن يأتيني من أريد لا من يريد... عندما ذهبت إلي ذلك الصديق وجدته متأهبا للمشاركة في العزاء... ووعدني أن يتفرغ لي فور انتهائه من الواجب الذي لن يستغرق أكثر من ساعة... كنت حريصا أن لا يفلت مني فذهبت معه... علمت أثناء الجنازة أن الميت طفل لم يتجاوز العام الأول من العمر... كان المعزون أفرادا قلائل... وكان أبو الطفل يحمل جثته علي يديه ملفوفة في الكفن بلا نعش... يحتضنه بين ذراعيه كما لو كان ما يزال حيا... بالقرب من المقبرة فوجئنا بسيارة شرطة تقف إلي جوارنا... قفز منها جنود يتبعهم ضابط شاهرا مسدسه زاعقا في سخرية:

- هل تظن أن هذه الحيل تنطلي علينا يابن الكلب .

كان الضابط أمرد يحمل ملامح طفولية حتى ليظنه الرائي لم يبلغ سن الرشد بعد... والتزم الثاكل الصمت التام مشددا احتضانه للجسد الميت كما لو كان يحميه من خطر داهم أشد من الموت... رمق الضابط بنظرة حزينة سوداوية يشع منها الاشمئزاز والكراهية...

صرخ الضابط وهو يوجه مسدسه نحو صدره :

- أعطني المنشورات .

حاول البعض إفهام الضابط حقيقة الأمر لكنه كان مصرا علي معلوماته واثقا من رأيه حتى أنني صدقت شكوكه... اجتاحني ساعتها فزع رهيب علي نفسي... سوف تكون مانشيتات الصحف صباح الغد عنا... عني... مجرم خطير... شيوعي أو من الإخوان المسلمين... وربما جاسوس أمريكي أو إسرائيلي...

لن يصدق أحد أنني أعزي رجلا لا أعرفه في جنازة فرضته علي الصدفة . .سيقبضون علينا جميعا... وتحت بشاعة التعذيب سيقر صاحبي بأي شيء عني... بل سأعترف علي نفسي بما يريدونني أن أقـرّ به... الكارثة أنني سمعت أنهم لا يملون علي المعتقل اعترافا يكتبه ويوقعه وينتهي التحقيق... إنهم يعذبون المعتقل حتى يعترف... فإذا لم يعجبهم الاعتراف واصلوا التعذيب... أما إذا أعجبهم فإنهم يواصلون التعذيب أيضا من أجل إتقان التفاصيل... حتى لا تمر شاردة ولا تفلت واردة... فإذا وصل إلى هذا كله عذبوه حتى يوقع علي إقرار بأنه اعترف بمحض إرادته دون أي نوع من الضغط المعنوي أو البدني... فإذا وقع علي هذا الإقرار واصلوا التعذيب ربما لأنهم لم يقتنعوا هم أنفسهم بما اعترف به المعترف علي نفسه... وربما لمجرد أنهم تعودوا علي التعذيب...

أخذت أفكر في هذا كله و أنا أرقب الحدث... أشار الضابط إشارة فأحاط الجنود بالرجل إحاطة خيوط العنكبوت بفريسة تعيسة وأخذ أحدهم ما هو ملفوف في الكفن عنوة... تبعه الضابط مزهوا إلي داخل عربة الشرطة تاركا الأب في قبضة جنديين...

بعد لحظات مرت كأنها دهر خرج الضابط منكسرا... توجه إلي الأب في ارتباك وأمر الجنديين أن يتركاه... وأخذ يحاول الاعتذار بكلمات منكسرة لا تبين.. أخذت أتابع ملامح الأب و أنا أحمد الله أن الأمر لن يسفر عن كارثة بالنسبة لي... تتابعت المشاعر علي ملامح الأب كما تتابعت الألوان... بدا أنه يريد أن يتكلم... أن يصرخ... أن يسب ويلعن... تقلصت ملامحه وارتجفت عضلاته حتى خشيت أن يثور فيضرب الضابط... فكرت في التسلل مبتعدا عن الأمر كله لاعناً صديقي الذي ألجأتني الحاجة إليه ...

فجأة سمعت عواء طويلا مبحوحا مذبوحا كصوت ذلك الحيوان الذي لا تدرك كنهه عندما تدهمه سيارة في جوف الليل فلا تدرك حتى ما دهمت... صرخة في نبراتها صوت الموت إن كان للموت صوت... جاوبت الصرخة صرخة أخري و أنا وباقي المعزين من الدهشة في غاية حتى تكشفت لي الأمور فإذا بالأب ينفجر في البكاء يجاوبه علي غير توقع انهيار الضابط باكيا... انكب علي رأس الرجل يقبلها... أقسم بأصدق الإيمان أن إشارة وردت إليهم أنه يخفي منشورات في الكفن وأنه سيخفيها في المقابر... التفت إلي الجنود آمرا بإحضار الجثة... لكن الأب ثار فجأة :

- لا لست أريده بعد الآن... انتهكتم حرمة الموت ومزقتم كفنه... احتفظوا به عندكم أو ادفنوه أنتم إذا شئتم ... !!

قال ذلك وقفل راجعا... شلّتنا المفاجأة برهة... ثم هرعنا نتوسل إلي الرجل أن يعود... رفض بإصرار... احترنا بين الجثة وبين الأب... لم نجد مناصا في النهاية من الرجوع إلي الجثة... كان الضابط ينوح كثكلي... أمر من خلال نحيبه من يعيد رتق الكفن وهو يلعن من دفع به إلي هذا العمل وهذه المهنة... ثم حمل الجثة بنفسه إلى المقبرة القريبة حيث دفنت...

علقت الحادثة الغريبة بذهني فترة ثم نسيتها أو تناسيتها... لكنها ترسبت في وجداني خبرة عميقة جعلتني لا أقع في المحظور ولا أتورط في السياسة... نسيت حتى الضابط بعد أن تابعت أخباره مرات قليلة... وعندما أخبرني محدثي أنه كبر ونضج و أن الأمرد أصبح ماردا بل و اشتهرت عنه بعد ذلك قسوته... لم أعرف اسم ذلك الضابط يومها...

عرفته بعد ذلك ثم نسيته... ثم عرفته من جديد... فقد كان اسمه ميسور ماضي... ترى... هل كان لتلك الواقعة القديمة أثر في اختياري له... هل عينته لا لكفاءته بل لأن ذلك الرعب القديم قد ترك داخلي ثأرا عاش ثلاثين عاما ثم استيقظ فجأة يطلب القصاص بطريقته... أن أقربه مني... و أن يكون وهو المهاب رهن إشارة إصبعي... أن أقهره بسلطاني و أذله بمالي؟

مباحث أمن الوطن...

لا علاقة لي بكل ما يمس الوطن ولا سادة الوطن ... لم أتورط قط فيما به مجرد شبهة... فلماذا يستدعونني إذن... ؟؟! لم يتكلم ميسور ماضي حتى الآن... سوف أحاسبه جيدا لكن علي أن أتخلص من ورطتي أولا... ذكرت فجأة مجموعة المحامين العاملين عندي... لكنني تراجعت عن إشراكهم في الأمر الذي يجب أن يحاط بأقصى درجات السرية... خطر ببالي محام صديق فطلبته... حكيت له ما حدث... لم يخف هو الآخر انزعاجه قائلا:

- أعرف أنه ليس لك أي نشاط سياسي لكن... هل حدث أن تبرعت لأحد أحزاب المعارضة أو أن حضرت أحد احتفالاتهم أو تفاوضت معهم في الانضمام إليهم أو نويت الترشيح على مبادئهم...

- أقسم لك بالله أنني حتى لا أعرف أسماءها... لا أعرف من الأحزاب سوي الحزب الوطني وحزب مصر... و...

فاجأتني ضحكته في التليفون وأغضبتني فاستدرك قائلا :

- حزب مصر انتهي منذ أكثر من عشرين عاما... تخلي الرئيس عن رئاسته فتقلص عدد أعضائه من عشرة ملايين إلي عشرة أعضاء... !!

قلت بلهفة كما لو كان سيشهد لصالحى في استدعاء الغد...

- ها أنتذا ترى... لا أعلم أي شيء ... لا أعرف من الساسة إلا ذوي النفوذ والسلطة والمنصب... وليس في المعارضة من تجتمع فيه تلك الصفات... .

- كونك لا تعلم أي شيء قد يكون أخطر...

- المهم أنني لا أعرف أيا من الأحزاب .. ظللت دائما بعيدا عن الجميع ..

صمت المحامي قليلا ثم قال :

- علي العموم هذه الأمور لا تحل عن طريق القانون ... إنها تحتاج إلي تدخل مسئول كبير يجتثها من أساسها...

ثم استطرد قائلا :

- أما من ناحية ذهابك فمن حقك القانوني عدم الذهاب فهم جهة تحريات فقط وليسوا جهة تحقيق... وعلي هذا فليس من حقهم استدعاؤك أو استجوابك... غاية ما يملكونه قانوناً إبلاغ نيابة أمن الوطن ضدك... وهذه تستطيع استدعاءك والقبض عليك... وهناك من حقك أن أحضر معك...

قاطعته في فتور غير مطمئن :

- يمكنني أن لا أذهب إذن ؟.

رد في لهجة محايدة فجعتني فيه :

- لا أستطيع أن أنصحك بالذهاب أو بعدم الذهاب فهذا أمر تقرره بنفسك بعد اتصالاتك... وقد كنت أكلمك عن القانون... ليس عن مباحث

أمن الوطن... أولئك ناس فوق القانون أو هم القانون نفسه... إنهم يحبكون الجريمة ثم يبحثون عن الشخص المناسب لها ثم يطوعون القانون كي ينطبق علي كل ذلك فإذا أبى القاضي أن يتبنى وجهة نظرهم قاموا هم بتنفيذ ما يشاءون من أحكام... يمكنهم عمل أي شيء... أي شيء... حتى القتل دون محاكمة... تمتمت في جزع يائس محدثا نفسي مرددا ما يقول :

- حتى القتل... .

لم أكن أوجه الحديث له... . لذلك فوجئت عندما راح يقول :

- نعم... حتى القتل... كانوا يمارسونه في البداية خفية متخذين أقصي وسائل الحرص حتى لا تثبت عليهم تهمة... الآن تغيرت الأمور... تطورت... حتى أنهم...

تمالكت نفسي... رغم الجزع تجلدت... أبعدت الهاتف عن أذني كي لا أسمع بقية حديثه ثم أنهيت المكالمة... أشعر بالدوار... قلبي يخفق فيردد المكان أصداء دقاته كقرع طبول السحرة في الأدغال حيث الغموض والموت .

كنت أدرك دائما علي وجه ما تلك الدائرة الجهنمية التي يحترق من يدخلها... كالغرفة السابعة في قصر من قصور ألف ليله وليله... عتبة المحظور... لكنها في ألف ليله عتبة مادية يمكن بالإرادة الابتعاد عنها... الآن تؤخذ الأمور بالشبهات... والعتبة حاجز معنوي حاذرت عمري لكيلا أتجاوزه... لكنني لا أعرف إن كنت قد نجحت أم أخفقت لسبب بسيط هو أن هذا الحاجز لا يري... كالمجال المغنطيسي... فأنت لا تراه... وطالما ابتعدت عنه لا تشعر به... لا تعرف عنه شيئا... أما إذا اقتربت منه... إذا دخلت في مجاله... فإن لحظة الإدراك هي نفسها لحظة التلاشي... يجذبك إليه... تذوب في دوائره الجهنمية أو يلقيك الجن في بلاد الواق واق... فأي مكان وراء الشمس يمكن أن يدفعني إليه استدعاء مباحث أمن الوطن اليوم... مجرد الاستدعاء

دليل علي أنني اجتزت الحاجز المعنوي... دخلت في المحظور... أما إلي أي مدي دخلت... وإلي أي درجة قضي علي بالتلاشي والهلاك فعلم ذلك عند ربي وعند اللواء حسين بركة...

ترى هل يحدث لي ما حدث لناجي ؟؟... ناجي ذهب دون أن يعرف كيف وفيم تجاوز عتبة المحظور... هل نحن كما قالت إيفيلين لسنا سوي خنازير تنتظر الذبح؟...

دخل ميسور ماضي دون سابق إنذار... اندفع لا يستطيع صبراً علي إخفاء انزعاجه واضعا سبابته علي فيه في علامة تحذير كي لا تصدر مني بنت شفة... أخذني من يدي دون كلمة إلي الغرفة الملحقة بالمكتب... فتح باب الغرفة ثم جذبني إليها... أخرج من جيبه راديو ترانزستور صغيرا وأداره عاليا ثم همس :

- لا تنطق باسمي و أنت تحدثني...

ثم أردف قائلا :

- هل جننت... كيف تطلبني في التليفون بعد أن استدعيت... من البديهي أن تليفونك مراقب... علينا أن نذهب إلي مكان آخر كي نتفاهم في هذه الكارثة...

أردت أن أرد... أو بالأحرى أتكلم... لأني لم أعرف بما أرد... لكن نظرة صارمة منه أخرستني... أسلمت قيادي له كالمنوم... بالإشارة والمعاونة تركت الساعة والنظارة و أفرغت جيوبي... تركت كل ما معي ونزلت معه... شدني بعيدا عن سيارتي وأخذني إلي سيارته ذات الستائر المسدلة والزجاج الذي يسمح بالرؤية في اتجاه واحد : من الداخل إلي الخارج فقط...

أخذ يقود سيارته بسرعة متخطيا حتى إشارات المرور المغلقة غير آبه بصيحات جنود المرور ولا حتى ضباطه... قبل حوادث الإرهاب الأخيرة كانت سيارات رجال الشرطة تتميز بأرقام خاصة تبيح لها الممنوع... الآن يستعملون الأرقام العادية... بدا لي أنه يتجه إلي خارج القاهرة... كلما حاولت أن أفتح فمي أخرسني بنظرة حاسمة لم ألحظها فيه قبل ذلك قط.

انداحت إلي مخيلتي ذكري الفتي الطائش الأمرد ذي الملامح الطفولية... أقسى من كل شيء سقوط الهيبة والجبروت فجأة... عرفت الكثيرين من الضحايا بحكم عملي وعلاقاتي ... .. ذلك الباشا الجبار الذي حسب نفسه أقوي منهم فعاث بأرضه ومن عليها فسادا... في أوج جبروته ذهبوا إليه في قصره... ضربوه حتى استغاث ولا مغيث فخيروه بين العذاب وبين أن يلبس ملابس امرأة فلبس فاستدعوا ضحاياه وطلبوا منهم أن يقتصوا منه فانهالت عليه الصفعات والركلات والأحذية وانهمرت أيضا دموع الرثاء ممن أشفقوا فعفوا... حدث كل ذلك في عرينه... تري ماذا فعلوا به عندما أخذوه إلي عرينهم... نظرت إلي ميسور بطرف عيني... ماذا سيفعل بي... كنت من الذهول في غاية... تكثفت الشكوك داخلي وتجسدت في ميسور ماضي نفسه... لماذا وثقت به... مثله لا يوثق به إلا كما يثق الخروف بذئب... كيف التمست البرد في النار والأمان في الهاوية...

قفزت إلي ذهني حكاية من حكايات جدتي عن رجل تشكل الشيطان في صورة أحد أصدقائه... وبينما يتجاذبان الحديث صرخ الشيطان فجأة لأن شوكة دخلت في قدمه وطلب من الرجل إخراجها... مد قدمه ففوجئ الرجل أن القدم ذات حافر مشقوق فأدرك أنه الشيطان فصرخ عاليا وانطلق لا يلوي علي شيء والشيطان يقهقه... ظل الرجل يجري حتى أدرك حيهم فقابل أخاه...

حاول أخوه أن يهدئ من روعه فأخذ يحكي له الحكاية حتى وصل إلي الحافر المشقوق فتساءل أخوه : مشقوق مثل هذا ، ومد قدمه فإذا به هو الآخر مشقوق...

وأدرك الرجل أن الشيطان قد تجسد في صورة أخيه فانطلق يجري صائحا وهو من الرعب في غاية إلي أن وصل إلي مشارف بيته فهرعت إليه زوجته وأخذت تهديء من روعه متسائلة عما به وأخذ يحكي لها عما ألم به حتى وصل إلي الحافر المشقوق فمدت زوجته قدمها صائحة به : مثل هذا؟

لا أعرف نهاية القصة ربما لأنني كنت أنام خوفا قبل أن تكمل جدتي وربما لأن القصة بلا نهاية... كنت كل مرة أستعيدها... كنت أريد أن أطمئن أن الرجل قد استطاع الهرب من الشيطان أو الانتصار عليه... وعندما كان النوم يغلبني كنت أصاب في الصباح بالمرض... وكانت جدتي تقول أن روحا شريرة أصابتني... ولم أكن أعرف الفرق بين الروح الشريرة والشيطان... لكنني كنت أثق أن جدتي بتمتمتها الغريبة وطقوسها الأشد غرابة تستطيع الانتصار علي الشيطان... الآن... لا جدة ولا تمتمة ولا تمائم...

لماذا وثقت في ميسور إذن... لعله يمد قدمه الآن فأري الحافر المشقوق.

لماذا وثقت به... ألا يمكن أن يكون موفدا من مباحث أمن الوطن للقبض علي... كي لا يثيروا القال والقيل... مثلما فعلوا مع الأب يوحنا... ربما أيضا لما هو أسوأ من القبض علي... طريقته الغريبة في أخذي من مكتبي... إفراغ جيوبي حتى مما يدل علي شخصيتي... أنا الآن بلا اسم ولا هوية... يمكن أن يتخلص مني بأية طريقة وفي أية لحظة... ثم يغلق ملفي في مباحث أمن الوطن .

استسلمت لمصيري... هل يمكن أن أفعل شيئا ؟؟... أن أحتج مثلا أو أعترض؟ !!... أن أنطح في الصخر... أن أتعلق بأقدام الرخ أو أختفي تحت أجنحة العنقاء...

هذا قدري... حتى القدر يمكن أن يرد بدعاء كدعاء جدتي أو أن يلطف فيه... أما مباحث أمن الوطن فأي ترياق مستحيل يوقف سمها...

(٣)

انحرف ميسور ماضي بسيارته عند أطراف المدينة وحاد عن الطريق المرصوف إلي مدق في مكان مهجور في ضاحية الهرم... نزلنا... بدت الصحراء بلا نهاية... طريقة مثالية أن يدفنني في الرمال بحيث لا يبقي مني دليل... من السهل بعد ذلك أن تطلق الشائعات حول سبب اختفائي ... وأن تجند أجهزة الدولة كلها للبحث عني وتنشر الصحف ويعرض التليفزيون وتتحدث الإذاعة ويتهموا الإرهابيين بقتلي أو اختطافي... حتى عن رفعت المحجوب والشيخ الذهبي انتشرت شائعات أن هذا حدث... تفحص ميسور المكان بعيني خبير وتنهد في ارتياح هامسا :

- الحمد لله... لم يتبعنا أحد...

لم يكن لدي ما أقوله فأخذت أتطلع نحوه في صمت...

واصل هو الحديث :

- كيف تكلمني في موضوع بمثل هذه الخطورة في التليفون... ألا تعلم أن تليفونك مر اقب قبل الاستدعاء ربما بأيام أو شهور أو حتى سنين ... كما أن مكتبك كله غير آمن وبيتك وسيارتك وساعتك ونظارتك وكل متعلقاتك... يمكن أن يكونوا قد زرعوا أجهزة تسجيل في أي منها... يمكن أيضا أن يكونوا قد وضعوا هناك كاميرات خفية للتصوير... لذلك أخذتك من مكتبك إلي هنا...

ماتت الكلمات داخلي... تحركت عيناي كما لو كانتا تقومان بعمل الشفتين المشلولتين... أومأت نحو الراديو المستمر فى بثه في تساؤل فأجاب :

- رغم الاحتياطات التي أخذتها فقد يكونوا قد زرعوا جهازا للإرسال في ملابسك أو حذائك أو حتى في ضرس محشو من أضراسك ... وعندما أدير جهاز الراديو علي موجات معينة فإن ذلك يحدث تشويشا علي أجهزة استقبالهم .

صمت قليلا ثم واصل قائلا :

- لا تنس أنني قد عملت معهم بنفسي فترة ليست بالقصيرة...

فجأة أحسست بكل تساؤلاتي تتسرب من داخلي... كما لو كانت قربة مترعة بالمياه انثقبت فجأة... فقدت التساؤلات مضمونها وهدفها...

لأنك تسأل إنسانا عن مدينة لم تزرها... عن شيء لم تره... لم تختبره بنفسك... أما إذا وجدت نفسك فجأة وسط المدينة... في زحامها اللجب وضوضائها الصاخبة... فهل تحتاج ساعتها من يصفها لك... إنني بصورة ما معتقل الآن... وميسور رغم أنه كان في نفس المكان إلا أنه دائما رآه من الجانب الآخر... وليس هذا الجانب هو ما يهمني... لذلك ليس لي أن أسأل... أولا لأنه ليس لي أن أسأل ثم ثانيا لأنني سأري بنفسي ما أريد السؤال عنه... لن أراه فقط... سأراه وأحسه وأسمعه وأشمه... سوف يتخلل مني العظام وقد يهشمها أيضا... نظرت في استسلام اليائس فاندفع يقول :

- أعلم أنك لا تعرف شيئا لذلك لا جدوى من إلقاء الأسئلة عليك ... ولكي أكون صريحا معك منذ البداية لا أعتقد أنني سأستطيع مساعدتك في هذه المشكلة ... مع مباحث أمن الوطن أنت وحدك... كالموت... تذهب أو حتى تُحمل كما يُحمل الإنسان إلي القبر وحده... لكنني سأطرح بعض النقاط قد تضيء الطريق أمامك... قد تساعدك...

تمخضت انفعالاتي الصاخبة عن فتور سابغ فقلت له :

- من الطبيعي أن يكون لك بينهم زملاء أو أصدقاء... تستطيع إن لم توقف الاستدعاء أن تعرف سببه...

ابتسم في مرارة قائلا :

- مع مباحث أمن الوطن لا توجد صداقة و إنما علاقة... علاقة القوي بالضعيف... الآمر المسيطر الذي يوقن أنه ليس في استطاعة الآخرين رد طلبه بالآخر ... الفاعل بالمفعول به... ومثل هذه العلاقة نسميها صداقة لمجرد حمل النفس علي تقبلها دون إحساس بالمهانة... هو يسألني... لكني لا أجرؤ أبدا علي سؤاله...

صمت في توتر ثم واصل :

- لا أنكرك أن بعض زملائنا كانوا ضحاياهم... ذات يوم... كنت وقتها نقيبا بمباحث أمن الوطن... جاءتني تعليمات باستقبال الضيف : كان لواء سابقا وكان يشغل منصبا هاماً بمباحث أمن الوطن... عزّ علي أن أعذبه بنفسي فتركته للمساعدين بعد أن أوصيتهم أن لا يبالغوا في إيذائه ... وكانت هذه الواقعة هي السبب في إبعادي عن مباحث أمن الوطن... أدرك المختصون أن ولائي غير كامل... كي يستمر الإنسان هناك يجب أن يكون يقينه بصواب ما يفعل يفوق كل يقين آخر... يقين يفوق حتى اليقين الديني... ومثل هذا اليقين يبرر لهم أي شيء يفعلونه... أي شيء... حتى القتل... إن يقينهم المطلق يحل محل اليقين الديني والوازع الأخلاقي وجميع المسميات الأخرى... لكن الجميع لا يستطيعون الوصول إلي هذه الدرجة من التفاني والولاء... يضعف البعض فيستبعد... ومن يستبعد يظل أبدا منبوذا منهم... لا دلال له عليهم ولا وساطة له عندهم... ينظرون إليه كالجندي الهارب... أو كالزوجة المطلقة... كل علاقاتها بزوجها السابق و آله علاقة

البغضاء والعداوة وتحيّن الفرص للإيذاء... قد تفهم بهذا لماذا لا أستطيع أن أساعدك...

استمعت لما يقول بصورة آلية وتمتمت كما لو كنت أحدث نفسي :

- بالرغم من ذلك لابد أن لك هناك أصدقاء... صديق... صديق واحد فقط...

لكنه واصل الحديث كما لو كان لم يسمعني :

- الآخرون... الذين يبقون هناك ليسوا جميعا علي نفس الدرجة من الإيمان واليقين ... فثمة شيء في داخلهم... في داخلنا جميعا... صوت لا يكف عن الصراخ أو الهمس مهما حاولنا كبته وقمعه... صوت يقول لنا ما هو الصواب وما هو الخطأ... و لأنهم جميعا لا يستطيعون طاعة هذا الصوت أو حتى الحديث عنه لا مع الآخرين ولا حتى همساً إلي ذواتهم فإنهم يتحولون إلي وحوش... وكلما ازداد الصوت داخلهم ازداد غلوهم وشططهم ... إنه يتحول داخلهم إلي عدو وعليهم أن يهزموه بأية طريقة...

ضحك في مرارة مواصلا :

- ولذلك تراهم أشد الناس حرصا علي مظاهر التدين... علي الرقة والدماثة في تعاملهم مع الآخرين خارج نطاق العمل... علي نظافة ملابسهم و أناقتها...

انفجر فجأة بتهور :

- هذا التظاهر المستمر يشي بحقيقة أليمة لم أنج منها حين كنت ضابطا بمباحث أمن الوطن... كنت أحارب دائما اتهاما خفيا بأنني أشد رجسا من الشيطان وأكثر وحشية من أشرس الحيوانات... لذلك كنت أنا أيضا أبالغ في التدين والتأنق... التدين هنا يمنحك ميزة كبري... إنه يجعل كل آثامك حزمة واحدة ثم يحملها جميعا عنك... فلست سوى منفذ لأمر أولي الأمر...

طاعتهم واجبة ومن صلب الدين... كل ما ترتكبه إذن صواب تثاب به لا إثما تعاقب عليه... عندما خرجت منهم... عندما لفظونى... استطعت أن أري الصورة أفضل ... فقد تساءلت : و إذا كان من ولاة الأمور الخائن والسارق والكذاب والمزور... أتجب عليّ طاعته أيضا؟

في الشهور الأولي كنت ما أزال أتردد عليهم لإنهاء بعض الأوراق... الصداقات الحميمة تصدعت والعلاقات الوثيقة انطفأت... في البداية كانوا يتصنعون عدم رؤيتي... يتجنبون المكاتب التي أتردد عليها ... أري الواحد منهم من بعيد فأقبل عليه هاشاً معداً نفسي لتلقيه بالأحضان لكنه يتشاغل بأوراق معه أو يُطرق ثم يدلف إلي ممر جانبي أو يدخل إحدى الغرف ويغلق الباب خلفه... بدأت بالغيظ أهاجم من ألقاه منهم... قلت له أنهم يتصرفون كأعضاء جمعية سرية إرهابية تنظر إلي الخارج منها أو عليها كأنه كافر يستحق الموت ... و أنهم يفكرون في الظلام ويعملون في الظلام وفي غيبة كاملة من القانون... و أن الإثم الحقيقي هو ما تفعله وتخشى أن تواجه الناس به...

كنت أتحداهم : هل يستطيع أي واحد منكم أن يواجه زوجته و أبناءه بما يفعل ... بحقيقة ما يعمل... قلت لهم لا تتذرعوا بالسرية... فأنتم تعلمون أن هذا غير صحيح... واصلت الهجوم حتى أتي وقت لم أجد فيه منهم من أهاجمه... كنت أقصد أصدقائي القدامى منهم ... أطلبهم تليفونيا في منازلهم فتنكر زوجاتهم وجودهم... شككت في نفسي ... لعلها محض أوهام ... تابعت واحداً منهم... كان أقربهم إلي قلبي ... حسبت ذات يوم أن صداقتنا لن ينهيها حتى الموت فأوصيته بأولادي وبيتي إن حدث لي مكروه في إحدى عملياتنا الخطرة أو إذا اغتالني إرهابي ... تابعته حتى بيته... وطلبته في التليفون . لم أطلبه من تليفونى فقد يظهر رقمه عنده فلا يرد... طلبته من مقهى مجاور فأجابتني زوجته أنه غير موجود...

ذهبت في اليوم التالي والغضب يكويني إلي مكتبه و انتظرت بعيدا حتى رأيته يدخل... قلت لنفسي أنني سأضربه.. لكنني قبيل مكتبه رحت أقدر عو اقب الأمور فقلت بل سأعاتبه...

المساعد في مكتبه أخبرني أنه غير موجود... لم أتمالك نفسي فانفجرت صائحا... وقابلني المساعد بصياح هو الآخر... ولحظتها أدركت الحقيقة... الحقيقة ... ...

أنفصل عنه بعد نفاد صبري فلم آت كي يبثني أحاسيسه الغير مفهومة والتي تحمل في طياتها حقدا لا يستطيع نسيانه لأنه طرد من مباحث أمن الوطن... واصل ميسور الحديث لكنني لم أكن أسمع... امتدت أمامي الهضاب والوهاد وبدا رمل الصحراء تحت وهج الشمس يلمع من بعيد وثمة غبار في الأفق يتشكل تحت إشعاعات الضوء وإجهاد عيني فأتخيل فيه أرواحا مسحوقة تهرب من الأرض إلي السماء فتتلقاها كائنات نور انية تذهب عنها الروع وتعيد إليها الطمأنينة وتهدهد منها الألم وتطمئنها أن عذاب الأرض انتهى.

كانت جدتي تقول لي أن هذه الكائنات النور انية ما هي إلا أحبابنا الراحلين بعد أن تطهروا... و أنها سوف تكون في انتظاري هناك... بعد عمر طويل... علي البعد تلمع الرمال كسبيكة منصهرة من الذهب يعلوها الدخان لكن نفس الرمال حين تقترب منها مقالب قمامة... وقلت لنفسي أن أقذر القمامة علي الأرض هم البشر... و أن إيفيلين لم تكذب... ولا أولئك الأصدقاء الذين سخرت من سخريتهم بي لاطمئناني لاستقرار الأمور في الوطن... فجأة خطر السؤال ببالي فسألته :

- هناك... هل يحاسبونني علي ما ارتكبت فعلا أم يلفقون لي التهم ؟ .

نظر نحوي بدهشة قائلا :

- من المؤكد أنك شردت و أنا أكلمك... لم تكن تسمعني... سأقول لك مرة أخري... كل شيء يحدث هناك... كل ما يخطر ببالك وكل ما يمكن أن يخطر ببالك و أيضا ما لا يمكن أن يخطر لك ببال ... أما الحقيقة فشيء نسبي... أنا مثلا لم أكن أختلق... لم أكن أدس منشورا علي المعتقل ... لكنني عندما كنت أجد منشورا عند أحد المقبوض عليهم كنت أصور منه مئات النسخ و أنسبها إليه ... فلو قدمته إلي النيابة بمنشور واحد سيجد الذرائع للإفلات... ولو أفلت لحاسبني رئيسي ولحاسب رئيسي رئيسه ... والقضاء بطيء ثم أنه لا يكاد يجد فرصة للبراءة إلا التمسها... لذلك علينا أن نحشد الأدلة... يقول لي الرئيس أن هناك مجرمين... وظيفتي أن أجد هؤلاء المجرمين.

ثم أنني لن أجد مجرما يعترف أنه مجرم... لا بد إذن من الحيلة والعنف... الآخرون لا يتورعون عن ابتداع التهم التي تشاؤها لهم قدرتهم علي الإبداع ... الوضع هناك مروع ... هل تعرف شيئا عن لعبة السيف القديمة عند الرومان... كان ضحاياها عادة من العبيد ونادرا من السادة الذين يتهمون بالخيانة... في حفلات ضخمة كانوا يأتون بالضحية يضعونها أمام الآلة الجهنمية وهي عبارة عن عامود ضخم يثبت عليه في اتجاهين متعاكسين سيفان طويلان أحدهما في مستوي ركبتي الضحية والآخر في مستوي العنق... وثمة إطار معدني يحيط بالضحية حتى يظل في مدي السيفين... يبدأ الجهاز الجبار في الدوران ببطيء في البداية... ويبدأ الضحية في القفز كي ينقذ ساقيه وفي الانحناء كي ينقذ عنقه... لكن سرعة الدوران تزداد وتزداد وتتحول محاولة النجاة إلي رقصة مجنونة تنتهي دائما بالهلاك... بقطع الساقين أو الرقبة أو ببترهما معا...

بشكل ما فهذا هو ما يحدث في مباحث أمن الوطن... فالواحد منهم تحت ضغط رهيب من رؤساء يتهم كل منهم مرءوسه بالتراخي والعجز عن حفظ الأمن و الإمساك بأعداء النظام وبين عناد معتقلين يصرون علي عدم الاعتراف ... تضيق حلقة الحصار ولابد أن تنكسر أضعف أجزائها... إن لم يحصل ضابط مباحث أمن الوطن علي اعتر افات ترضي رئيسه فسوف يفقد عمله وربما يفقد معه عقله... فالطريقة التي تعود بها علي التصرف في مباحث أمن الوطن تجعله لا يصلح للعمل في مكان آخر... وما بين رئيس لا يرحم ومعتقل لا يعترف يبيح لنفسه أن يفعل كل شيء و أي شيء... ثم أن الرئيس يتغاضى عن كل شيء و أي شيء في سبيل ذلك... كما أنهم يتعرضون لتدريب مكثف يفقدهم الصلة تماما بالآخرين...

يفقدهم التراحم والرحمة... يصبح الآخرون بالنسبة لهم أشياء وليسوا بشرا... أقل حتى من الحيوانات... تخيل قطعة من الصلصال ترفض أن تتشكل في يدك... لا أقل من سحقها ... ليسوا جلادين فقط... بل أيضا ضحايا... نفس لعبة الهلاك الرومانية التي يلعبها ضحاياهم علي الرغم منهم يلعبونها... ليس إجبارا بل اختيارا... يظل الواحد منهم يقفز كي ينقذ عنقه وساقيه... لكنه في النهاية يسقط... لابد أن يسقط... مهما طالت مدة نجاحه في النجاة فهو هالك... حتى لو وصل إلي الوزارة...

بدت عيناه تنظران باشمئزاز وقرف إلي ما وراء المكان... ولاح لي أنه ينظر داخل نفسه... أخذ يتكلم في بطئ :

- في بدايات عملي أمرني رئيسي بضبط منشورات دسّها شقي في كفن كي يخفيها في المقابر... هاجمت الرجل... و أخذت منه ما يحمل عنوة ومزقت لفائف الأقمشة فإذا بـ...

صمت... أخذ يضغط بأسنانه علي شفته السفلي... ثم سرد الواقعة باختصار مخل لم يذكر فيه شيئا عن انهياره... ولم أقل له أنني كنت أحد شهود الواقعة...

ثم واصل الحديث:

- عدت إلي رئيسي ساخطا غاضبا... قلت له أنني وجدت جثة طفل لا منشورات ففاجأني بقوله في بساطة : " لقد كنت أعرف " فصرخت فيه: "لماذا إذن؟ " فأجابني: " كنت أريد تدريبك علي انتهاك حرمة الموت "...

فجأة علت ملامح وجهه ابتسامة منبتة الصلة بالزمان والمكان والظرف وهو يقول :

- دعني أروي لك هذه النكتة : كان أحد الرؤساء يزور أمريكا... وأثناء المباحثات سألوه عن تمثال رمسيس الموجود في باب الحديد... هل هو رمسيس الأول أم الثاني... توقفت المباحثات انتظارا لمعرفة الإجابة حيث كان الفريق الصهيوني يريد معرفة ما إذا كان التمثال لمن طرد بني إسرائيل من مصر أم لفرعون آخر... .اتصل الرئيس بمدير مباحث أمن الوطن طالباً منه الإجابة بأقصى سرعة... حاول المدير أن يستمهله أياماً لصعوبة البحث عن الإجابة لكن الرئيس رفض أي تأجيل أو أعذار.

صباح اليوم التالي اتصل المدير بالرئيس هاتفا :

- عرفنا الإجابة يا سيادة الرئيس... إنه رمسيس الثاني .

تساءل الرئيس بلهفة :

- كيف عرفت ؟

أجاب المدير في ثقة :

- قبضنا عليه واعترف !!.

هتفت بضيق :

- هل جئنا إلي هنا كي تقول لي ذلك ؟

أدرك ضيقي فقال :

- بالطبع لا... لكنني أريد أن أنصحك... هذه هيئة خطرة لا تحاول اللعب معها... . منطقهم يختلف تماما عن منطق الآخرين... لو أنك ذهبت إلي بلاد لا تعرف من لغتها حرفا لاستطعت التفاهم ولو بالإشارة... أولئك مختلفون... وهم قبل أن يحولوا ضحاياهم إلي ضحايا لابد أن يتحولوا هم إلي وحوش... التشويه يلحقهم قبل أن يلحق بضحاياهم... لذلك... رغم المهانة التي أحسستها عند طردي... فإنني عندما أستعيد الأمر أعرف أن ذلك كان فضلا من الله وكرما...

بدا أنه متردد قليلا لكنه سرعان ما حزم أمره :

- إن كنت تخفي عني شيئا فأرجوك أن لا تصرح لي به... لا أريد التورط ولو بمجرد العلم... لكن تصرف علي أساس أنهم يعرفون عنك مالا يخطر لك علي بال .

نظر إلي نظرة ثاقبة ليسير أغواري... ليقرأ ملامحي ويعرف تأثير الكلمات علي... ثم أردف وهو يضغط مخارج الحروف ليؤكد عليها... ليستوثق أنه لن يضيع من سمعي حرف:

- إن كان هناك ما تشم منه رائحة الخطر فلدي أصدقاء يستطيعون تهريبك إلي الخارج... هذا هو ما أستطيع مساعدتك فيه... إذا قررت ذلك فيجب أن يتم بأقصى سرعة... يجب أن تهرب قبل موعد الغد... وأن تعد ما تريد أن تهرب به فضلا عن نفقات الهروب نفسه... في مثل حالتك تحتاج إلي عشرة ملايين علي الأقل... فهل تستطيع تدبير هذه السيولة في الجزء الباقي من النهار...

قاطعته قائلا

- هل تري أن الأمر علي هذه الدرجة من الخطورة...

أجاب :

- أنت الذي تحدد ذلك...

- كيف ؟

- مثلا... هل تورطت في علاقة مريبة مع دولة أجنبية...

- أنت تعرف معظم علاقاتي وأعمالي...

- أقصد ما لا أعرفه...

- كأنك تستجوبني

- بل أحاول مساعدتك... من المستحيل أن تكون لك علاقة بالجماعات الإرهابية ...

ثم أردف ضاحكا :

- إلا إذا كانت رحلات الحج والعمرة قد تحولت وجهة أخرى.. غير التى نعرفها...

فاجأتني سخريته وهذره... خاب أملي فيه... إن لم يكن ذا نفع فهو دون خطر... نظرت له نظرة صارمة أوقفته عند حده... فواصل في جدية حزينة :

- في مختلف الأزمان قبضنا علي كل فئات المجتمع ... وعلي ما بينها من اختلاف وتعارض عذبناهم نفس العذاب ووجهنا لهم نفس التهم... لقد اتهمنا الشيوعيين والإخوان المسلمين والجماعات الدينية جميعا بالخروج علي الدين .

نظرت إليه بيأس نافد الصبر فواصل بصوت مشروخ :

- لا تراع... حصلنا علي فتاوى من بعض الشيوخ بذلك...

كدت أنفجر من الغضب و أنا أهمس :

- ما من أجل هذا أتينا...

قال جادا ومهتما :

- هل يمكن أن تكون قد تورطت في تجارة سلاح...

- علي الإطلاق...

- أو أن تكون لك علاقة خاصة مع دولة عربية أو إسلامية معادية...

- لا عربية ولا أجنبية...

غمغم قائلا :

- لا توجد دول أجنبية معادية... كلها عربية أو إسلامية...

ثم واصل :

- أو أن تكون خرقت قرارات المقاطعة...

حرصي دفعني إلي البعد عن تلك الدول حتى قبل أن يقاطعوها... .

- ربما رفضت التعامل مع إسرائيل...

- لم يحدث إلا موضوع السفارة و أنت تعرفه... لم أرفض لكنهم كانوا يريدون الحصول علي الشقق بربع الثمن وبالتقسيط دون فوائد ولا ضمانات... عندما اشتكونى قال لهم المسئول أننا شركة خاصة ولسنا حكومة ليمارسوا هذا الضغط ... فساوموا كثيرا ثم ذهبوا...

- ربما تكون قد اصطدمت بشخصية هامة .

- كنت ستعرف . ... علاقتنا بالجميع ممتازة... لم نخل بوعد ولم نتراجع في كلمة... لم نقصر أيضا في أداء واجب أو إسداء جميل أو تقديم هدية... الأسبوع الماضي وقعت عقد بيع فيلا في برج النيل إلي السيد المحافظ... وكما أراد تركت اسم المشتري خاليا كي يتصرف فيها هو بمعرفته... تعلم أنها الفيلا الرابعة لوزير... لم يدفعوا فيها جنيها واحدا... تعلم أيضا أن ابني النائب

قد حصلا علي فيلتين ... في الباقي كنت أنت الوسيط... والأمور الأخرى التي تعرفها... هل رفضنا تحويل حساب أي مسئوللاللخارج رغم ما يكتنف ذلك من خطورة... لقد كنت أنت الوسيط بيننا وبين الوزير عندما طلب أن نضع في حسابه في الخارج مليون دولار مع وعد بأن يرسل لنا المقابل في نفس اليوم... وحولنا المبلغ ولم يرسل شيئا فهل أهملنا بعد ذلك في أي أمر من أوامره ؟... كان ذلك مجرد مصروفات نثرية مما أتكبده فى سبيلهم... والوزير الآخر...أو دعك من هذا... أنت تعرف ما حدث مع بهاء...

قاطعني قائلا :

- هذه كلها أمور أعلمها... لكن ما زال عليك أن تفكر... فقد لا يكون السبب أنك رفضت طلبا... إنما أنك لم تعط لمن يجب أن تعطي له...

قلت له بيأس :

- لا يوجد من لم نعط له...

لكنه واصل قائلا :

- ولو صح هذا الافتراض فإن هذا الشخص المجهول الذي نجهله يهاجم بضراوة... أفراد معدودون هم الذين يستطيعون تحريك مباحث أمن الوطن... وهؤلاء الأفراد الاقتراب منهم خطر... لكنه بالنسبة لمن في مثل ثرائك ليس أخطر من الابتعاد عنهم .

أخذت أرقب المكان في حيرة موحشة... ترامت إلي أذني من بعيد ضوضاء الأطفال والسياح حول الأهرامات... حتى أنت يا فرعون قد هلكت فلماذا أجزع من الهلاك كل هذا الجزع حتى لأترك ميسور ماضي يزيد في رعبي ربما كمحاولة لابتزازي... ألا يمكن أن يكون الأمر كله عملية ابتزاز... خديعة... قد يكون ميسور ماضي نفسه مشاركا فيها... حين يدفعوني إلي كل هذا الرعب لأهرب... لأدفع لذلك الشخص المجهول عشرة ملايين جنيه و أغادر البلاد

دون أن أكون مطلوبا أصلا... واصل ميسور الكلام لكنني كنت بعيدا عنه... لا أتابع كلماته... أسرح في خواطري... في همي... في لقاء الغد... تبدو الساعات القادمة طويلة ... لكن ألم يعلمك الزمن أن كل زمن يمر... لطالما نهشك القلق انتظارا لما هو آت... ثم مضى كل ما أتى... هل مر ناجي بمثل هذا الذي أمر به... هل تجرع كل هذه المشاعر النازلة والمخاوف الهائلة... ولماذا كانت تبدو علي ملامحه كل تلك الوداعة والسلام...

صمت ميسور فانتبهت... طال صمته... بدا محرجا فحدست ما سيقوله...

- كنت أود أن أكون نافعا لكن هذا الأمر خارج كل حساب و اتفاق.

سئمته... سيطرت عليّ فكرة أنه يستغل ضعفي ويحاول ابتزازي... وددت لو ينصرف... لكنه بقي ليقول ما وددت أن يحتفظ به لنفسه فقد أدركته :

- أرجو أن لا يأتي ذكر اسمي بأي صورة من الصور لا من قريب أو من بعيد في أي تحقيق... اعتبر أنني لم أعمل معك... لعلي لم أستطع إخفاء نظرة احتقار فاستدرك :

- ليس ذلك لمصلحتي فقط بل لمصلحتك أنت أيضا... وجود لواء شرطة معك لن يقوي مركزك بل سيضيف قائمة أعدائي إليك... إذا اتهموك مثلا بعضوية تنظيم ستكون كارثة إذا ظنوا أن هذا التنظيم يضم لواء... سيتعاملون ساعتها بأقصى درجات الجدية... ولن يضرني ذلك وحدي بل سيضرك أنت أيضا...

علت ملامح الذعر وجهه وتأججت عيناه بوهج القلق وهو يتمتم ضاغطا علي مخارج الحروف :

- ثمة احتمال آخر لم يخطر ببالي إلا الآن ... ألا تكون أنت المقصود بالأمر كله ... أن تكون مجرد كبش فداء يصطادون عن طريقك ضحيتهم الأصلية...

رددت خلفه في آلية مستفهمة :

- ضحيتهم الأصلية ؟؟

- أجل... الضحية الحقيقية المقصودة... أي واحد ممن لك بهم علاقة... لم يستطيعوا اصطياده مباشرة فقرروا اصطياده من خلالك... أي واحد... قد أكون أنا المقصود مثلا... و إن كنت أظن أن الأمر أكبر مني... أرجو ذلك...

غرق في صمت مأخوذ... كأن أحدا آخر هو الذي كان يتحدث ليكشف له أشياء مذهلة... وبدا مرات أنه يهم بالحديث لكنه يمنع في اللحظة الأخيرة نفسه... بدا أنه عدل عما كان يريد قوله ليقول شيئا آخر:

- هل تذكر تلك الليلة التي اتصلت فيها مذعورا بسبب صوت الرصاص والقنابل والـ : آر بي جي بالقرب من قصرك ... كانت حادثة قتل اللواء إمام و ابنه... أبديت اعتراضي واحتجاجي وصرخت في وجه الوزير: لسنا عصابات من المجرمين ... حتى لو كانا قد اختلفا مع بهاء أو حتى مع الـ ... واصلت شفتاه التحرك لكني لم أكن أسمع...

طلبت منه أن ننصرف...

ونحن في الطريق سألني عما كنت سأذهب إلي البيت أو المكتب... لشد ما أتوق إلي البيت... أستلقي في سريري... أدفن وجهي بين أغطية الفراش... منذ متي لم أذق ملح الدموع ... أريد أن أهرب... أختبئ من هذا العالم المخيف...

طلبت منه أن يوصلني إلي المكتب...

(٤)

انصرف ميسور ماضي... الذي كان يتشرف بلقائي ويتمني رضائي ويتحين الفرص كي يبقي معي دقيقة أكثر تركني و انصرف... عدت إلي مكتبي... ألوذ به... فيه تتبدى قوتي وجبروتي... السيد المهاب المطاع الآمر الناهي المانح الجبار المسيطر... تذوب هذه الصفات في بيتي... تتلاشى...

لماذا لا يأخذنا الموت بزهونا... لماذا لا نموت إلا بغصة...

أفقد القدرة علي الاستمرار بنفس الدرجة التي أفقد بها الرغبة... ينكسر قلبي ... أتذكر ناجي.

قالت لي إيفيلين أن قلب ناجي قد انكسر و أنه فقد الرغبة في الاستمرار والقدرة علي المواصلة... يجيب الزمن الآن علي السؤال الذي لم تجبه أنت يا ناجي... لم يكن صمتك استسلاما ولا رضي بما يحدث... كنت عاجزا... ومدركا في ذات الوقت أنه لا توجد قوة قادرة علي إنقاذك أو مد يد العون لك... ومنعك كبرياؤك من الصراخ من أجل الصراخ... ذبابة بائسة وقعت بين خيوط العنكبوت ولديها من الذكاء ما تدرك به أن أي محاولة للإفلات تعقد الخيوط حولها أكثر... لذلك فإنها تستسلم للموت الحتمي في كبرياء دون محاولات – تدرك أنها يائسة ومحكوم عليها بالفشل – للخلاص ... لماذا لا أموت الآن... لماذا لم أمت بالأمس فجأة قبل أن أنكسر ؟!.

من سيحزن من أجلي غدا...

ما أشد خواء كل هذا الزحام ... ..

وهؤلاء الأصدقاء... كل هؤلاء الأصدقاء... لو أصابني اليوم كرب سأجد المئات والآلاف حولي... لكن غدا... من سيكون معي... تري... هل يحس القط بأي نوع من الإشفاق علي الفأروهو يلتهمه... هل يحزن الكلب علي كلب والنمر علي حماروحشي... هل يحزن من أجلي عشيرتي الأقربون...

ماذا ستفعل زوجتي و أبنائي غدا ؟.

لا يحميني من خيبة الأمل في الزوجة والأولاد حام... ولا يمنعهم من التصريح بالاستهانة بي سوى الخوف علي الميراث أو الحرمان من الإنفاق ومهما أغدقت عليهم فإن وجودي حاجز بينهم وبين ما يريدون... .

هل يحصلون من زوجتي علي ما يدينني ؟... تترامى إلي تخوم الذاكرة أصداء حدث قديم... هل كان حدثا ؟... هل رأيته بنفسي ؟... أم حكاه لي أحد؟... أم قصة قرأتها.. أم فيلما سينمائيا شاهدته.

كان المعتقل عنيدا وكانت زوجته جميلة... وكان الضابط القائم بالتحقيق شابا... و انفجرت العلاقة والفضيحة والألم وطلب الطلاق وجنون الزوج المعتقل... ترى... من ممن أعرف تختار زوجتي ؟... أو ممن لا أعرف... ميسور ماضي أم سكرتيري أم أحد منافسي... ولعله اللواء حسين بركة ذاته...

محصور علي مقعدي الوثير في ركن من مكتبي الفخيم لكن يجتمع علي زمانان ومكانان... فأراني في وضعي هذا و أراني مقبورا في زنزانة راقدا علي الأرض وثمة كوة في باب كباب مصيدة فأر، وطعام مقزز لا يوجد سواه وصف من البق والنمل ونملة تعتقل وتحاكم وطفل ذو صوت جميل في قراءة القرآن في عنبر الدعارة وضابط يدخل عليّ كل حين وحين، كل دخول بعذاب وكل عذاب يختلف عن كل عذاب ... .. ثم يأتيك الذئب في فراء حمل مدعيا أنه يصدقك النصح... زوجتك تطلب الطلاق... من الأفضل لك أن تستجيب

بدلا من الفضائح في المحاكم... من منهم سيراودها... لم تستثن إيفيلين أحدا... من سيحمل لي الكارثة فيخبرني... هل يقيض لك أن تشهد غريمك ... أو أن تري المتصابية العجوز مراهقة مع الضابط الذي يستلب بشبابه وعيها بسن يأسها... علمتك تجاربك – وباعك في ذاك طويل – أنه ليس أشد نزقا وطيشا وجنونا من عجوز تتصابى.

أما الأولاد فلا حاجة بهم إليها... ولا إليك... لماذا استكنت إلي هذه الثقة كلها في وضعك... كانت أمامك الشواهد والنذر... لماذا لم ترسل بعض الأبناء علي الأقل للخارج مثلما فعل ناجي... هل كنت تظن أنهم سيكونون في أمريكا أبعد مما هم عنك الآن... ياله من كد ذلك الذي بذلته في جمع ثروتك... وياله من أسي أن تضيع تلك الثروة في نزق زوجة وسفاهة أبناء...

دخـل السكرتير فجأة... الخبيث يعرض جدول مواعيد الغد كي يحصل علي مو افقتي النهائية عليها... ملعون... يريد أن يسمع بأذنيه رجفة الرعب في صوتي حين أطلب منه إلغاء مواعيد الصباح... يسبقني فيشفع كل موعد من مواعيد الصباح بأهمية هذا الموعد وخطورة إلغائه... كأن الخراب سيصيب كل شركاتي فتنهار أسعار بورصات العالم بل القيامة ستقوم لو لم أحضر غدا... أغمد خنجرك أيها المخنث فقد انهار قيصر... يتصنع الدهشة حين أطلب منه تأجيل مواعيد الصباح جميعها :

- سعادتك... لماذا ؟!

كل كلمة شوكة في القلب ... أدوس علي القلب المجروح لأرد في بساطة لم يتعودها مني:

- لكنك تعرف موعد مباحث أمن الوطن غدا...

تعلو وجه الوغد ملامح الانزعاج هاتفا :

- سيادتك... هل ستذهب حقا...

أتصنع اللامبالاة :

- ولم لا...

ثم ضاحكا :

- عالم جديد من الأصدقاء لم يسبق لي الدخول إليه...

بدا عليه الانزعاج كحَمْلٍ كاذب :

- سيادتك... أرجوك ألا تذهب ... حاول أن تنهي الأمر قبل دخولك إلي هناك ... أرجوك... أنت تعرف الكل ... ومكالمة تليفونية قد تنهي سوء التفاهم... أرجوك ... فمن يدخل إلي هناك لا يخرج أبدا كما دخل...

صمت قليلا... الممثل الوضيع استجلب إلي عينيه نصف دمعة وهو يواصل :

- هذا إذا خرج ... ..

تصنعت الاستهانة... أنه طفل صغير لا يفهم مثل هذه الأمور ... .. و أنني قد رتبت الأمور كلها و أن الأمر لا يعدو طلب تبرع ضخم للانتخابات...

واصل التوسل والتحذير والتعبير عن مشاعره... ماذا ستقول عندما يستدعونك للشهادة ضدي ؟...

أتوق إلي قصري... أشتاق إلي جدران القصر لا إلي من فيه... أنا خارج القصر إمبراطور لم يحصل من عشيرته علي الاعتراف وليس ثمة ما يدفع لإبداء مشاعر صادقة أو كاذبة... غدا تنهش مباحث أمن الوطن الإمبراطور فينتهي كل شيء... .

أمرت السكرتير أن يتصل بهم ليبلغهم أنني لن أعود لغداء لم أعد منذ زمان طال إليه إلا لماما.. لكنني لم أكف عن عادة الاعتذار عنه ... سألني إن كان يطلب لي غداء من الشيراتون أو الميريديان لكن نفسي تعاف الطعام... يرتجع حامض المعدة إلي جوف الصدر حارقا كاويا ما وراء القلب...

هكذا فسر الدكتور ناجي قبل ذلك ما ظننته أزمة قلبية... عزمت أيامها علي الذهاب إلي أحد المستشفيات الاستثمارية الكبرى لإجراء الفحوصات والعلاج... وتناوب الأصدقاء علي باللوم والعتاب والتقريع : يا أحمق... لم يعد هناك طب في بلادنا ... انهار الطب كما انهار الاقتصاد والجيش و كل شيء... كل صرح طبي ليس إلا شركة لتوظيف الأموال يرأسها ريان آخر... وأن الفساد عم فيما يعم الصحة... و أن كل هذه المستشفيات ما هي إلا محتال يسعى للتعجيل بمشاركة الورثة إن بقي لهم شيء ... قالوا لي أيضا أن إسرائيل قد تسللت بأجهزتها الطبية إلي تلك المستشفيات تحت رعاية الدكتور المعجزة بهاء... و أن لهذه الأجهزة سمعة عالمية في الرداءة والسوء... ليس لها سوق عالمية علي الإطلاق.

قالوا أن هذه المستشفيات ما شيدت إلا لرعاع يجب أن يموتوا... أما من يريد العلاج حقا فلا مفر أمامه من السفر للخارج... بعد أن سمعت ما سمعت أخذت أعد العدة للذهاب إلي هيوستون للفحص والعلاج... وكان من الضروري كتابة تقرير طبي بحالتي حتى يقوموا بتحديد موعد لاستقبالي هناك... وقال أحد الأصدقاء أنه يعرف أستاذا لأمراض القلب كان يعمل في هيوستون نفسها... و هكذا عرفت الدكتور ناجي فلم أذهب إلي هيوستن و ابتدأت علاقتي الحميمة به... لم أدرك كم كانت حميمة إلا بعد انتهاء كل شيء والهروب الفاجع لزوجته وطفليه...

قفز الخاطر في ذهني فجأة لحل مشكلتي... لماذا لا أدعي أنني قد أصبت بأزمة قلبية... أدخل مستشفي استثمارية وأوصي الطبيب أن يكتب ذلك... لو دفعت له الثمن سيكتب... في حالات – أشد خطورة- سمعت عمن يكتب حتى شهادة وفاة... لكن هل ينقذني ذلك ؟... هل يغير من الأمر شيئا ؟... فقط سأعذب نفسي بإطالة الإنتظار... مهما طال غيابي ففي النهاية سوف أذهب...

باختياري سأذهب ورغما عني سأذهب... أينما كنت سيدركونني... داخل البلد أو خارجها... سيظلون في انتظاري واثقين بأنني واقع بين أيديهم لا محالة... انتظار صياد حاصر فريسته و أحكم حولها فخاخه وشباكه ثم انصرف عنها واثقا من اقتناصها... من سقوطها... بل لعل محاولتي للهروب بهذه الطريقة تدفعهم لمزيد من الريبة والحصار.

أصدقائي مئات ومعارفي ألوف... لماذا لا أتصل بأحد منهم... أمسك بالتليفون... أطرق الأرقام... يدق الجرس في الطرف الآخر لكنني قبل أن يجيب مجيب أغلق الخط... كيف أستنجد بهم وقد كانوا هم الذين يستنجدون بي... لم يبد عليّ أبدا أمام أي واحد منهم ضعف أو خوف أو انزعاج أو انفعال... كنت أخوض أصعب العمليات بقلب جسور وثقة بالفوز حتى أطلق أحد الأصدقاء علي ضاحكا لقب : النفس المطمئنة...لكنني استثمرت حتى هذا اللقب في صالح أعمالي... تتتالي أسماؤهم وتتتابع... أري بعين الخيال ملامحهم يعلوها البشر لقرب سقوطي ومحاولتهم لتلوين نبراتهم بالانزعاج لهلاكي الوشيك.

سمعت أيضا بأذن الخيال كل واحد منهم يقول : ألم أقل لك كذا وكذا... ثم يروح يقول ما لم يقله أبدا... في هذه الظروف سيبدو كل واحد منهم ذكيا و أنا الغبي ... حريصا و أنا المفرط... سليما و أنا المعاق ... ثم أن أي واحد منهم لن يقدم حلا حتى و إن كان في استطاعته...

لماذا لا أطلب اللواء حسين بركة شخصيا... .انفجر السؤال داخل رأسي كنوبة حمي... لماذا لم أطلب رقمه من ميسور ماضي... عليّ الآن أن أعتمد علي نفسي فلا ينبغي أن يطلع علي مهانتي وذلي أحد... أطلب الدليل... رقم اللواء حسين بركة إذا سمحت... اسمه الثلاثي... لا أعرفه... ضابط بمباحث

أمن الوطن... حاولي معي إذا سمحت.. رقمه الخاص سري... نعم... إذن رقم العمل...

دخل السكرتير بأدب شديد... بدماثة ورقة وضع أمامي عصير الجريب فروت وقطعة واحدة من الجاتوه... يعرف المواعيد جيدا ويحفظ عاداتي فيلبي رغباتي دون طلب مني...

- سعادتك... لماذا لم تأمرنا أن نطلب لك الأرقام التي تريد؟.

صرفت ابن الأفعى باسما وشاكرا... أرتجف بالحمى و أنا أطلب الرقم...

- (من؟... علي هاشم من؟؟... اللواء حسين بركة شخصيا؟؟... يمكنك أن تترك له رسالة؟؟... الأمر هام وعاجل... إذن سأحولك إلي مدير مكتبه... ... ... غير موجود... ... ..)

أهنت نفسك يا أحمق... لعلهم هناك الآن يضحكون صاخبين لفزع الفأر أمام باب المصيدة... لتخبطه ... يا غبي... الذين من حقهم طلب أمثال اللواء حسين بركة يطلبون على أرقام لا يعطيها الدليل...

السكرتير يدخل الفنجان الثاني والأخير من القهوة كما قرر الأطباء الذين تولوا متابعتي بعد الدكتور ناجي ... تبدو دماثته مستفزة... إنه يعلم أنني متوتر فيبالغ في تحاشي إغضابي... ليس ذلك مهما... المهم أنه يعرف سبب توتري... النذل الخسيس جذل في أعماقه... لكن ليس لذلك أهمية الآن فهو يقوم بعمله خير قيام... استبدلته بالسكرتيرة بعد غيرة حمقاء من زوجتي... غيرة لم تكن في غير محلها فلم أترك منهن واحدة إلا ضاجعتها... هداني الله وكبر سني ووهن عظمي فتبت وأحضرته.

لم يبد إهمالا ولم ينس شيئا ولم يعص أمرا ولم يتوان... لم يمرض يوما ولم يتأخر لحظة ولم يظهر عليه ملمح ضيق رغم ما كنت أرهقه به... لم ألمح منه قط ولم أسمع علامة رفض حتى قلت لنفسي ذات يوم – ضاحكا :

- حتى هو الآخر لو طلبت مضاجعته لما رفض...

لكن التساؤل يفاجئني الآن كما تفاجئ الحية الرقطاء الآمن من مكمن... هل يمكن أن يوجد فعلا إنسان علي هذه الدرجة من الطاعة... من النفاق و انعدام التمرد والكرامة... من تلاشي الذات... إنه موجود باستمرار كلما خطر ببالي... قبل أن أطلبه أجده أمامي... في التليفون حتى في جوف الليل لم يحدث حتى ولو مرة أن يجيبني مع دقة الجرس الأولي علي الطرف الآخر من الخط سواه... كأنه يظل طول الليل بملابسه كاملة في انتظاري .. ما طلبته مرة من منزله إلا وفوجئت به أمامي في أقل من نصف الوقت الذي تستغرقه المسافة بل في وقت أقل من الوقت الذي يستغرقه ارتداء ملابسه و إصلاح هندامه الأنيق.

لقد شككت أحيانا أن زوجتي تنقده أجرا إضافيا من أجل مر اقبتي... أجرا مغريا حتى أنه يستطيع يخدع نفسه بتبرير تلاشيه في عملية خداعي... أن لا يكون التلاشي انعداما بل خطة محكمة... لكن لماذا لا تكون الداهية أنكي والخطب أفدح... من المستحيل أن يوجد إنسان بهذه الصفات فعلا... لكن من الممكن أن يوجد من يدّعيها..من يمثّلها... إن كان يمثل فهل يمثل لقاء ما أعطيه له – وهو كثير – أم يمثل لقاء ما تعطيه له زوجتي أيضا... أم أن الكارثة أفدح و أفدح وليس إلا ضابطا قديرا في مباحث أمن الوطن ير اقب كل أعمالي ويكشف كل أسراري... يبدو ذلك هو المبرر الوحيد المقنع لتلاشيه... أن تتوازى درجة تحقيق الذات بالنجاح في العمل مع درجة التلاشي... كلما تلاشي أكثر كلما نجح أكثر... أشعر بالندم... بالخوف... لأنني أذللته دائما دون خوف من رادع.

كان احتماله للإذلال مغريا علي مزيد من الإذلال... وكان تجرده من الكرامة دافعا علي امتهانها... آفاجأ غدا – كما تأتي التحقيقات أحيانا في صفحة الحوادث في الصحف – بأنه نائب اللواء حسين بركة أو مساعده ويده اليمني... أتتبدل الأدوار ويصبح القط فأرا والفأر ثعبانا رهيبا يبتلعني ... لو أعرف فقط... لو أستقر علي حال... تتسلط علي الفكرة حتى أقاوم نفسي أن أناديه... أعتذر إليه ثم أتوسل أن يقبل الاعتذار... أتسول منه الصفح وأرجو الرحمة... لو صحّت شكوكي و اقتصر ما يفعله بي علي أن يرد لي ما فعلته به لكانت كارثة لكنني في حدود معلوماتي – وهي ضئيلة – أدرك أن كارثة اليوم ستكون غدا أملا عزيز المنال بل مستحيلا... فهل سيقتصر الأمر علي أن يرد الصاع الذي جرعته إياه صاعا مثله... أو حتى صاعين... لا... أدرك أن الأمر هناك يختلف... قمة الرحمة والإنسانية أن يكتفوا بالركلات والصفعات والشتائم والإهانة... يفعلون ذلك مع من يوصي بهم عليه القوم أن لا يهانوا...

من لا يوصي به يدخل في دائرة أخري من العذاب تبدأ بالجلد بالسياط والضرب بالشوم والصعق بالكهرباء وتنتهي بالتعليق كالذبائح... وثمة مراحل أخري بعد ذلك لا تتوقف حتى عند الموت، فأيها يختار سكرتيري الوديع غدا !!

دخل السكرتير عليّ فجأة ففزعت... كان الوهم قد تجسد داخلي و اقعاً فخلت للحظة أن الداخل هو اللواء حسين بركة متنكرا في صورة سكرتيري ... سرعان ما تمالكت نفسي...

تلكأ – متعمدا – للحيظات فبدا كقط وحشي يتلمظ قبل التهام فأر... كدت أصرخ فيه أن ينطق ... و أوشكت أن أتوسل إليه أن يبوح...

تصنع الاهتمام بتعديل وضع مقعد اعوجّ عن مكانه ملليمترا ثم بتحريك ملف انحرف أمامي نصف درجة... نفد صبري فنظرت إليه موشكا على

الانفجار ... ابتسم في خضوع ومذلة بينما يذكرني بموعد المرورعلي برج النيل في السادسة مساء ثم اجتماع نادي رجال الأعمال في السابعة والنصف مساء ثم اجتماع الروتاري في التاسعة والنصف ثم حفلة عقد قران ابنة نائب رئيس الوزراء في الحادية عشرة... بعد أن تاب الله علي لم أعد أسهر بعد الواحدة صباحا... ثم أنه يجب أن أنام هذه الليلة مبكرا فلست أدري ما يخبئه الغد لي...

- هل أنت متزوج يا رأفت ؟

تذكرت أنني لا أكاد أعرف شيئا عنه... تجمدت ملامحه في دهشة إثر سؤالي الذي لم يسبق أن وجهت إليه مثله قط... بدا عليه الارتباك للحظة... تلعثمت الحروف بين شفتيه... خجلت من تهافتي... تصنعت نسيان سؤالي وانكببت علي أوراق أمامي فانصرف بعد أن غمغم بإجابة لم أفسر حروفها...

(٥)

تحاملت علي نفسي وتوجهت إلي زهرة أعمالي "برج النيل"... أعظم وأعلي مبني في الشرق الأوسط... يتجاوز في ارتفاعه برج القاهرة والهرم الأكبر... استعنت بأحدث وسائل التكنولوجيا في العالم لبنائه الذي يوشك علي الانتهاء... رغم أنني ظننت أنني أعددت للأمر عدته وحسبت لكل شيء حسابه إلا أن خيوط العملية تكاد تفلت من يدي من كثرة الضغوط التي تمارس علي لتوفير مكان فيه... قال لي الأصحاب عند الشروع في بنائه : " أنت مجنون ... هل تتخيل أن تجد في مصر من يشتري شقة بخمسين مليون جنيه، وضحكت وقلت لهم بل أنتم الحمقى وقلت لنفسي أنني أشيد نموذجا لسيرز تاور ومكماهون تاور.

من علي قمة البرج أخذت أرقب القاهرة... مدينة الغبار والدخان والاختناق والزحام والرعاع والجياع والمساكين حتى ليبدو برجي في وسطها جمالا متميزا يزيده الانفراد بهاء... علي هذا السطح سأنشئ المطعم الدائري والمسرح والسينما وفروع المطاعم العالمية وناد للصفوة وحديقة ودارا صغيرة للملاهي ... للدكتور ناجي بصمات كثيرة علي المكان... كان فنانا... بهرني الذوق الرفيع لديكور عيادته عندما ذهبت إليه أول مرة لكنه فاجأني بأنه هو الذي صاغ هذا الديكور ابتداء من التخطيط واختيار المواد والألوان وحتى التنفيذ... رد علي دهشتي فأخبرني أنه ليس هاويا فقط فقد درس كل ذلك أثناء تواجده في أمريكا.

بدأت حكاية البرج بقطعة أرض علي النيل من طرح النهر... لا مالك لها ولا صاحب... وضع أفّاق يده عليها وجعل منها مشتلا... رسم أحد معاوني الخطة و أجري اتصالاته هنا وهناك ونشرت مقالات وكبسولات في الصحف الكبرى تندد بالاستيلاء علي أرض الدولة وتبني أحد الكبار الحملة بعد وعد بشقة... تواصلت الحملة فذهبت البلدوزرات تهدم ما أنشأ.

أحكمنا الخطة للحصول عليها... كلفنا الأمر كثيرا من العناء حتى كدت أنفض منه يدي... لكن الأبواب المغلقة فتحت أخيرا وحصلنا علي أوراق وتصاريح تملأ عشرات الملفات... أوراق من المجلس المحلي فالمحافظة فالكهرباء فالمياه فالمجاري فالتأمين فالتأمينات فوزارة الري فالتخطيط فالصناعة فالمواصلات فالمالية فهيئة الطيران المدني فالقوات الجوية فأجهزة الأمن فمجلس الوزراء مرورا بمجلس الشعب... أوراق... أوراق... كل ورقة دفعت فيها ما يوازي وزنها ذهبا... وبعضها أضعاف وزنه، أربعة وعشرون شقة وخمسة فيلات في مختلف أنحاء العالم والقاهرة والإسكندرية والبحر الأحمر والساحل الشمالي... ثلاث وثلاثون سيارة من مختلف الماركات منها المرسيدس المصفحة... مائة كمبيوتر و أربعمائة وخمسون جهاز فيديو ومائة تليفزيون ملون... فضلا عن عشرات الثلاجات والغسالات والأجهزة المنزلية غير ما دفع نقدا... أطلق أحد الظرفاء أيامها علي إدارة المشتروات اسم إدارة الرشوة الحكومية... أنفقت مائتين و خمسين مليون جنيه قبل أن أبدأ العمل

أجرت الأرض لمدة تسع وتسعين عاما بمبلغ زهيد... وسعنا اللسان الممتد في النيل حتى أصبحت المساحة أكثر من فدان كما وصفها لي المختص!!

عندما استعمل مساعدي لفظ فدان حدجته بنظرة قاسية ففهم أنني ألومه فتبسم ضاحكا قائلا أن مسئول الحي علي حق فمن الأفضل لنا ألا نستعمل المتر المربع فطرح النهر يمكن أن يزيد المساحة مئات الأمتار - إذا ما رغبنا ذلك - في ليلة !!

و أتت الإكراميات أكلها فغضوا الطرف عنا عندما ساعدنا طرح النهر... جاء الرسم المعماري من باريس... يحتوي الدور علي أربع شقق فقط تطل جميعها علي النيل في بانوراما رائعة ... كل شقة قصر له مصعده الخاص الذي يحمل قاطنه بسيارته إلي مكان الحديقة وحمام السباحة أمام قصره ... أوشكت الآن علي الانتهاء... كل ما فيها مستورد حتى نصف مالكيها ... مطار وجهاز مركزي لاستقبال إرسال العالم كله... أثاث إيطالي و إكسسوار أسباني وديكور فرنسي ومطابخ أمريكية و أجهزة يابانية و أبواب ونوافذ ألمانية ومحطة خاصة للكهرباء وأخرى لتنقية المياه ونوافير موسيقية من سنغافورة فضلا عن آلاف الخدمات الأخرى.

يرأس أمن البرج لواء تحت يده مئات الموظفين ومهندسو الصيانة ومضيفات وجليسات أطفال من مختلف الجنسيات وطهاة وخدم بحيث تبدو خدمات فنادق النجوم الخمس بالنسبة لها خدمات أكواخ بائسة. تحول البرج إلي مزار سياحي... إلي عجيبة من عجائب الدنيا... لا تكف الصحف عن الحديث عنه مهاجمة ومعجبة وحاقدة... اشترت السلطة الفلسطينية قصرا من قصور البرج فعجبت من ثرائهم... وعلق المشترى ساخرا: القصر في هذا البرج مساحة كافية لممارسة الحكم الذاتي بدلا من غزة وأريحا.

اقترح الدكتور ناجي أن أخصص ركنا لنجيب محفوظ فذلك سيمنح المكان قيمة معنوية وشهرة فقلت له لا تنقصنا الشهرة ثم أن المكان لا يناسبه لكنني أنشأت أفخم قاعة في الشرق الأوسط لرجال الأعمال... كنت أعرف أن

ما دفعته في البداية مجرد فاتح شهية لأنصاف المهمين... أما المهمين فعلا فقد حصلوا علي شقق يتجاوز ثمن الشقة عشرين مليون دولار فضلا عن مائة مليون دولار وضعت في حسابات في الخارج ... وكنت كلما خسرت بعمولة جديدة أو رشوة أخرى أعوض ذلك من طرح النهر.. كانت المعدات الحكومية تأتى فى الليل لتردم مئات الأمتار ثم ندعى أنها طرح النهر.. ونعاملها نفس معاملة الأرض الأصلية.. تضاعفت المساحة.. فأضفت إلى المشروع قصورا منعزلة بعضها لا يتم الوصول إليه إلا عبر النيل.. قيل لى أن بعض المسئولين يفضلون هذه الطريقة فهى آمن خاصة عندما يقيمون حفلات ماجنة ..

تترامي القاهرة تحت قدميّ فأشعر بالفخر... لكنه فخر مجروح بموعد الغد... تري هل يتاح لي أن أقف هذا الموقف مرة أخري... أخذت أراقب الشوارع من ارتفاعي الشاهق بعد أن استحال الفخر أسى... بدت السيارات علباً من الثقاب أما الناس فحشرات تسعى... الدنيا خالية وحيثما توجهت بعيني تنطبق السماء علي الأرض... علي غير انتظار و أنا علي الحافة داهمتني الفكرة غلابة والحل جذابا حتى ارتعبت فارتددت ... قفزة واحدة ثم لا يبقي لهم إلا جسد فليفعلوا به ما يشاءون ...

و أنا متوجه إلي اجتماع رجال الأعمال أخذت أحداث بناء هذا البرج تتوالى داخلي... المشكلة الحقيقية بدأت عندما تم بيع قصور البرج بالكامل إلي عيون المجتمع من رجال السياسة والاقتصاد والفن... أمراء عرب وسفراء بل وحكام أجانب... نصف حكام العالم العربى اشتروا بأسمائهم ولعل النصف الآخر اشترى بأسماء مستعارة... علق الدكتور ناجى ساخراً أنها أفضل مكان لجامعة الدول العربية... توجد أيضا بنوك وشركات كبري...

بعد تمام البيع بدأت الضغوط بعد ذلك للحصول علي المزيد، لا أنكر أن المشروع قد حقق لي ربحا صافيا أكثر من خمسمائة مليون دولار. لكنني كسبتهم بعرقي وكدي... لم أخدع أحدا... فلماذا تستدعيني مباحث أمن الوطن إذن... غيري يحقق هذا الربح من عملية واحدة... بل لقد عرض عليّ أضعافه لمجرد أن أكون واجهة لشركة بحرية تتولى نقل السلاح لكنني رفضت... لا عن قناعة بل عن تلمس للأمان وبعد عن مكامن الخطر... فلماذا أنا إذن من دونهم... لماذا يستدعونني وماذا سيفعلون بي.

ما سمعته مروع ورهيب... جسدي الذي تعود علي كل هذا الترفيه كيف يحتمل عذابهم... الفراش الوثير كيف يتحول إلي برش... و أنت الذي تقيم الدنيا وتقعدها إذا اكتشفت في القصر أو المكتب ذبابة كيف تعايش البق والنمل والصراصير والفئران والسحالي والثعابين و ابن آوي... ورجال الشرطة والجلادين والكلاب والحرس... ثم يا ذواقة الطعام كيف تألف طعامهم... وهل تأكل الملوخية التي أكلها ناجي هناك ؟!...

بعد ما فعله ضابط الحرس سحب ناجي أوراق ابنه و ابنته من كلياتهما و أعادهما إلي الولايات المتحدة مرة أخري فضاع عليهما عام دراسي... لم يكونا قد أكملا عاما في مصر... لم أكن قد عرفته بعد... لكنه كان يقول في سخرية عندما أسأله عنهما مجاملا : " يجب أن يمتنا لي العمر كله... لقد أنقذتهما " ... ثم يردف كي يشبع فضولي أو يثيره... لم أكن أدري:

- "هذه البلد مصيدة... وقعت أنا فيها... لكنني أنقذتهما. ليت إيفيلين تأخذ الطفل وتذهب ... إنها ترفض... و أنا عاجز عن استعمال كل أسلحتي في الإقناع...

وعندما رزق بالطفلة الأخيرة ذهبت مهنئا فقال في حزن : " هنيء الصياد "... ولم أفهم.. في اجتماع رجال الأعمال كان ذهني مشتتا... بحثت بين الحاضرين عن صديق... آخذه بعيدا... أنفرد به كي أبثه همي... أصرح أمامه كم أنا مرعوب وخائف و ألتمس منه النصحة والمشورة... لكن لا صديق... نحن هنا نمور وضباع وفهود وذئاب وكلاب وثعابين وثعالب لكن لا صديق... وبالرغم من ذلك يا إيفيلين فهجومك غير صحيح ... لسنا وحوشا لأننا ولدنا كذلك... ولا لأن جيناتنا تختلف عن جيناتكم... نحن وحوش لأن من حولنا وحوش ... .. ثم أنك حكمت علي الوطن كله... ولم يكن الظرف مناسبا لأقول لك أننا لسنا الوطن، كيف كان يمكن أن أشرح لك في انهيارك العصبي أننا برغم كوننا المستفيدين الرئيسيين مما يحدث فنحن نعرف أننا لا نمثل الوطن... لقد وجدنا من يلتهم فشاركنا ووجدنا من ينهش فنهشنا ... .. ونحن نعرف أنه سيتهاوى فوق أم رأس الجميع لكن ليس لنا حيلة... هل كان يمكن أن تصدقيني لو قلت لك أنني نفسي أرفض كثيرا مما يحدث... يا إيفيلين أنت رأيت أسوأ من في الوطن و أسوأ ما فيه... و لو سألت أيا ممن قابلت لأقسم لك أن دمه فداء الوطن... لكن لا أحد ممن يقسمون إلا ويدرك أنه حانث في قسمه... و ليس ذلك لأننا شعب من الحيوانات كما قلت في انهيارك ولم أرد عليك... لقد وجدنا الوطن مستباحا ولو لم نستبحه لاستباحه سوانا فآثرنا أنفسنا بالخير... لستم وحدكم المتحضرين يا إيفيلين... ورجل أعمال في مثل حجمي زار العالم شماله وجنوبه وشرقه وغربه يعرف كثيرا - وإن ادعي العكس - عن أنظمة الحكم... ويعرف أيضا و إن لم يقل أبدا أننا نحن الصفوة لا نمثل الوطن ولا الناس العاديين بل علي العكس تماما تماما... إن طبائعنا نقيض طباع الناس ومصالحنا ضد مصالح الوطن...

هل كنت أستطيع يا إيفيلين أن أحكي لك أثناء صراخك عن مئات الموظفين البسطاء الذين اضطررت لسحقهم سحقا لأنهم رفضوا مئات الألوف وهم لا يملكون ثمن عشاء أطفالهم... وما سحقتهم إلا لأنني لو لم أسحقهم لسحقهم غيري ومرر مشاريعه وحصل علي المكاسب لنفسه... وهل كنت أستطيع أن أقول لك أننا لو أتينا بشعبكم ليعيش تحت وطأة نظم كنظمنا لتحولتم إلي كائنات أكثر منا وحشية وشرا... نحن الصفوة لا نختلف علي أننا لا نمثل الوطن يا إيفيلين... نختلف فقط في مدي صواب أو خطأ هذا الموقف...

بعضنا يفعل ما يفعل وهو يعرف أنه خطأ لكنه يبرره لنفسه... الآخرون يظنون أنهم علي صواب... لكن لا أحد من الطرفين يدعي لنفسه أنه يمثل الوطن أو الناس... لكن كيف لم تفهمي ذلك وقد عشت الظرف كله، يا إيفيلين: أنا مخير ذلك الخيار الشرير الممتع لأنه الممكن والمنطقي الوحيد... مخير بين أن أكون كناجي ليحدث لي ما حدث له أو أن أكون كما أنا لأنجو... هل كنت أستطيع أن أقول لك أنني أحببت ناجي لنفس الأسباب التي دفعتك لحبه والاقتران به... البراءة والنقاء والطهر. غير ناجي لم يكن لي صديق... كنت أعلم جيدا أنه لا يمكن أن تنشأ صداقة حقيقية - ولا حب حقيقي - بعد سن العشرين عندما يكون الواحد منا كالحديد المنصهر يسهل تشكيله...

كل الصداقات التي تولد بعد هذا العمر صفقات... كان ناجي الاستثناء... دخل القلب منذ اليوم الأول وفي اليوم التالي قلت له أنني أعرفه منذ ثلاثين عاما ولم أعد أطيق فراقه و أصبح سفري إلي الخارج مشكلة فرجوته أن يرافقني فقال في بساطة أنه ممنوع من السفر... وسألته لماذا فقال أنه كان في هيوستن مشغولا بآفاق البحث للقرن الواحد والعشرين ومدي الفائدة التي ستعود علي عمليات زرع القلب من الهندسة الوراثية لكنه منذ أتي إلي هنا مشغول بالبحث عن موظف أرشيف لا يحضر أبدا فإذا

حدثت المعجزة وحضر رفض أن يعطيه المستند... ثم نظر نحوي في دهشة وألم وهو يقول :

- ليس المذهل تقدمهم هناك... ذلك طبيعي... غير الطبيعي ما يحدث هنا... كيف استطاع هذا البلد أن يستمر حتى الآن... لماذا تأخر انهياره رغم كل ما حدث وما يزال يحدث... ذلك هو المذهل حقا .

هل عذبوك حقيقة يا ناجي ؟... هل كانت إيفيلين صادقة أم خيل لها الانهيار ما لم يحدث ... .. هل يعذبونني غدا ؟.

(٦)

ذرات البارفان العالقة بالهواء تساوي مئات الدولارات لكن ثمة نتن... حاولت أن أتسلل من بين أحاديث الصفقات وأسرار الحكم والفضائح إلي ما يروي السعار داخلي :

- هل قرأتم تقرير الخارجية الأمريكية عن انتهاك حقوق الإنسان في مصر؟... جابهتني الدهشة والسخرية... قال أحدهم :

- أخيرا جدا تشغلك السياسة .

قال آخر وهو يضحك :

- ألم أقل لك أن رجل الأعمال بدون سياسة كالمحار دون قوقع ورجل السياسة بدون رجل الأعمال كالقواقع دون محار... ليس لأحدهما حياة إلا بالارتباط بالآخر.

أما الثالث فقال وهو يكسو ملامحه بالجد :

- أهلا سيادة الوزير.

شارك الآخرون :

- لعله قرر أن يؤلف حزبا .

- بل أن يكون وزيرا أفضل... ولو لعام واحد فقط فتغفر له الحكومة بعده ما تقدم من ذنبه وما تأخر...

- سيضمن طول عمره ألا يمثل أمام النيابة أو المحكمة .

- كم دفعت ؟!... .

- لا تكن كالإرهابيين وصحف المعارضة... توقف عن إثارة الشائعات ...

- لماذا؟... هل شراء المناصب عيب؟... آه لو يعود ذلك الزمن القديم... لكنت الآن أتسري بألف جارية و أشتري من المناصب ما أشاء .

- هل تظن أن هذا الزمن انتهي يا أحمق... قل لي أي منصب تريد و كم امرأة وادفع الثمن و أنا كفيل بتحقيق مرادك قبل انتهاء الاجتماع !!.

حاصرني الصمت... الحوار يبتعد عما أحترق قلقا لمعرفته... وجه أحدهم الحديث لي جادا :

- لكن هذه بداية غير صحيحة فالمفروض أنك ستلعب مع الحكومة لا مع المعارضة... لذلك لا تصلح قضية حقوق الإنسان مدخلا لك...

قلت لهم :

- يا جماعة... لم يتغير موقفي من السياسة والساسة... مازلت مصرا علي الابتعاد عنها فهي تشبه بالونا يرتفع بك إلي عنان السماء لكنك لا تملك توجيهه ثم أنه قد ينفجر في أي وقت... ثم أن خبراتي كلها هي خبرات رجال الأعمال .

قال أحدهم ضاحكا :

- إنه يظن أن السياسة تحتاج إلي خبرة...

وقال الآخر:

- كم من " شاويش" غبي أصبح إمبراطورا وكم من فاشل في الثانوية العامة أصبح رئيسا للجمهورية وكم من جاهل - إلا بعلوم الجواري والخمور - أصبح ملكا... .

انطلق أحدهم ضاحكا وهو يقول :

- كنت هناك... وكان وزير الدفاع الأمريكي يصف أعظم قياداتنا العسكرية بأنه لا يعرف الفارق بين الواقي الذكري والكلاشينكوف... و أن علاقته بالمدرعات والطيران قد اقتصرت علي تلك اللعب الكهربائية التي يهتم بمواصفاتها أثناء مفاوضات شراء سلاح بالبلايين اهتمامه بالسلاح نفسه...

قال آخر:

- ولماذا يهتم مادام قد حصل علي العمولة...

التفت الأول إلي قائلا في جد :

- إياك والتورط في تجارة السلاح...

قلت في إعياء :

- ذلك لم يحدث ولن...

قال أحدهم وهو يرفع كأسه العاشر أو العشرين. لا أدرى...

- كنت أظن أن تجارة الدم والنهود والمخدرات أكثر أنواع التجارة ربحا. لكنني اكتشفت أن تجارة الأوطان تربح أكثر...

قال أخبثهم طوية متصنعا الهذر مضمرا الإساءة إن استطاع :

- يا جماعة... لو أن علي باشا هاشم ينوي اللعب مع الحكومة لكان مدخل التعذيب وحقوق الإنسان مدخلا خاطئا... لكنه الآن أكبر من ذلك... وهو يلعب مع الكبار...

أشار بإصبعه إلي أعلي فاخترقني سيخ من الحديد المحمي ، وواصل هو:

- علي هاشم... اسم مناسب لرئيس وزراء... أو حتى رئيس جمهورية، ثم أنه اسم يسهل علي الأجانب نطقه...

بين ضحكاتهم قلت نافد الصبر- كاذبا - :

- يا جماعة ... الأمر أبسط من هذا بكثير جدا ... كان القنصل الأمريكي يزورني اليوم... كان يطلب مني بصفة شخصية إنهاء بعض المشاكل المتعلقة بعائلة الدكتور ناجي وزوجته الأمريكية... وتطرق الحديث عرضا إلي تقرير الخارجية الأمريكية... فقلت له أنهم يبالغون... بل وصارحته أننا لا نسمع عن حقوق الإنسان منهم إلا إذا كان ذلك بمناسبة ضغط يريدون ممارسته أو خلاف يريدون حله... لكنه قال أن الأمر خطير جدا و أن انتهاك حقوق الإنسان قد فاق كل حد... ...

- وماذا في ذلك... شعب تعود منذ بني الأهرام ألا تحركه سوي السياط !!.

- هل اكتشفت وزارة الخارجية الأمريكية ذلك الآن فقط ؟ أم أنه آن أوان تغيير الجياد !!.

- شائعات قذرة يطلقها الرعاع والمعارضة .

- بل هو حقيقي وما خفي كان أعظم .

- المسألة أعقد من هذا بكثير... ..

- ... ... الرئيس... ...

- ... ... الاقتصاد...

- ... ... النمور ... ..

- ... ... أحمد فؤاد...

- ... ... ليته يعود... ...

- ... ... العمولات والرشاوى... ...

- ... ...

- لماذا يثقلوننا بالتبرعات لانتخابات يعلمون ونعلم أنهم يزورونها... .

يالي من أحمق يزيد ثقل موازينه... لماذا طرحت الموضوع... غدا أُسأل فيه فلماذا طرحته... كل محاولات النجاة لذبابة تلف الخيوط حولها أكثر وكل حركة من حركات الغريق للطفو تزيده من الأعماق قربا .

الغريق الذي يطفو ليعاود الغرق وجدتهم يصغون لنكتة:

- ذهب بهاء ليشتري سيارة فاختار الشبح و أراد أن يدفع ثمنها فإذا بالتاجر يصر علي الرفض و أنها هدية... فانصرف إلي أبيه مسرورا فإذا به يلومه بشدة مذكرا له بسفالات صحف المعارضة التي لا تكف عن اقتناص كل شاردة وواردة لتلويث الشرفاء... و أصر علي اصطحابه بنفسه إلي التاجر ليسدد له الثمن... وعاود التاجر الرفض مؤكدا أن أسمي ما يتمناه الرضي... ثم أن ركوب بهاء باشا للشبح أفضل دعاية للمعرض وللسيارة وستعود عليه بالربح الوفير... و أصر الوالد علي دفع أي مبلغ ... ولكي يرضيه التاجر قال له : إذن سآخذ قيمة التمغة فقط ... فأخرج الأب من جيبه مائة جنيه أعطاها للتاجر الذي قال : لكن قيمة التمغة عشرون جنيها فقط... فرد الأب علي الفور : إذن ... أرسل بالباقي أربع سيارات!!.

انفجروا ضاحكين فشاركتهم تشنج الشهقات والزفرات بقلب مثقل .

- ماذا بك ؟ لست في مزاجك الطبيعي اليوم .

غمز أحدهم بطرف عينه ضاحكا :

- التوبة أكثر من عام تضر بالصحة وبالمزاج !!.

قال الآخر:

- السكرتير الرجل يدفع للاكتئاب .

صاح آخر:

- مازلت في سنة أولي بيزنس... السكرتير الرجل خير ستار.

ستار... ... ...

ســـــــــتار...

مفتاح القصر الكبير قطعة صغيرة من المعدن... ومفتاح جحيم الذكريات قد يكون كلمة...

ســـتار... ... ...

كان ذلك في دمياط... لم أعرف بالحادثة إلا بعد أن وقعت الكارثة... عوضتهم بخمسين ألف جنيه من حر مالي رغم أنني لم أكن مسئولا... لم أعرف تفاصيل ما حدث قط حتى بعد أن استدعتني النيابة فذهب مستشاري القانوني وعاد ليروي لي النهاية لا البداية... حسام الدين عبدالشافي... ذلك هو اسم الرجل الذي لم أنسه بعد... شجار حدث بينه وبين أحد سائقي شاحناتي وكانوا قد أفرجوا عن شحنة من الميناء لتوهم... أسفر الشجار عن مذكرة في مركز شرطة دمياط ... مندوبنا الأحمق الذي كان مع السائق و بدلا من أن يحل المشكلة أضاف اتهاما إلي الرجل بالسرقة... ربما كي يعضد مركز السائق... ظن كلاهما أن الأمر قد انتهي بذلك ولم يذكره لي أحد... عاد المستشار إلي بما حدث بعد ذلك... ضباط المباحث والمخبرين عذبوا ذلك المسكين كي يحصلوا منه علي اعتراف بالسرقة... ثم واصلوا تعذيبه حتى الموت... قامت نيابة دمياط باستدعائي والسائق ... حضر المستشار القانوني بدلا مني... ور افق النيابة أثناء معاينة حجرة ضباط المباحث ... لم تكن الجثة مغطاة بملاءة بل كان ثمة ستار يحجب معظم الحجرة...

ستار...

قال المستشار أنه تعجب لاحتواء الجسد البشري علي كل هذه الكمية من الدم و أن الأمر بدا له كما لو أن وحشا أسطوريا انفرد بالرجل في تلك الحجرة ... وحش خرافي لأنه يكتفي بتعذيب فريسته دون أن يكون في حاجة إلي التهامها... أضاف المستشار أنه رأي عشرات الجثث ومئات الحوادث لكنه لم ير شيئا مثل ذلك أبدا... و أنه فور إماطة الستار ود لو يهرب... و أن نوبة غثيان أصابته انتهت بقيء كاد يخرج فيه أمعاءه... حتى رئيس النيابة هو الآخر قاء... ربما من أجل ذلك قامت النيابة بتصوير الغرفة والجثة نظرا لبشاعة الإصابات الواضحة بالجثة ومنها خروج جزء من العين اليمني للخارج و انفصال الساق اليمني من عند الركبة من جراء التعليق لفترات طويلة مع انتفاخ بالرقبة وكدمات بجميع أجزاء الجسم و انفجار بالخصيتين فضلا عن ملايين البقع علي الجدران... بقع بعضها دم متجمد وبعضها الآخر لحم بشري ... مكان واحد في الحجرة خلا من الدم واللحم... وقدر رئيس النيابة أن هذا المكان كان يجلس فيه الضابط الآمر بالتعذيب .

عندما رويت ما حدث لناجي توقف عن نحت التمثال الضخم الذي أوشك علي الانتهاء منه بعد جهد استغرق منه شهورا... صمت طويلا ثم هتف:

- يا إلهي... كيف استطاعوا مواصلة ضربه بكل هذه القوة والقسوة طيلة الوقت حتى يحدثوا به كل هذه الإصابات، و حتى الموت، ألم يتردد منهم أحد... ألم يكتف منهم أحد، عندما كانت الصحف الأمريكية تنشر هذا لم أكن أصدقه... ... كنت أخفيه عن إيفيلين والطفلين فإذا قرءوه صدفة كنت أقول لهم ولنفسي أنها الدعاية الأمريكية ضد مصر... وعندما تركت أمريكا وحضرت للعمل هنا

تأكد لي أنه يحدث... لكنني عزيت نفسي بأنه يحدث في جرائم الإرهاب فقط... ومن ضباط مباحث أمن الوطن فقط...

أحسست بانفعاله فأردت أن أسري عنه ... أخذت أحدثه عن عبقريته في النحت، عن روعة التمثال، أن براعته كفنان لا تقل عن براعته كطبيب، لم تفلح محاولاتي، أصر علي الصمت... أمسك فجأة بالمطرقة ثم هوي بها علي التمثال وبدأ يحطمه... روعنى ذلك.. هرعت إليه .. حاولت أن أمنعه.. لكنه راح فى جنون يحطم ويحطم ويحطم، ثم التفت إلي ضاحكا وهو يقول:
- "لقد كدرت ليلتي".

(٧)

اصطحبته علي العشاء غير مدرك فداحة ما به... أنا نفسي تأثرت للحادث أيامها لكن ليس بتلك الدرجة... على العشاء كان مرحه - على غير عادته - صاخبا... أخذ يحدثني عن روعة الاستعراضات الأمريكية... عن رحلاته من الشمال إلي الجنوب ومن الشرق إلي الغرب... عن الرحلة الساحرة من أورلاندو إلي لوس أنجلوس حين تنطلق الطائرة قبل غروب الشمس بخمس دقائق نحو الغرب فتظل الشمس في لحظة الغروب ثلاث ساعات كاملة... و انطلق صاخبا يقول أنها البدايات الأولي لوصول العلم إلي تجميد الزمن ... و أنه قد يصبح متاحا في جيلنا أو في جيل أبنائنا أن نختار اللحظة التي تستطيل وتتمدد فتشغل العمر كله، صرخ بصوت عال:

- سأختار لحظة شبق.

لكنه سرعان ما تراجع عن لحظة الشبق مفضلا عليها لحظة يطبق فيها بيديه علي عنق بشري فلا يفك قبضته ولا القتيل يموت... عنق بشرى لجلاد أو ظالم.. طرقع بإصبعين قائلا في حماس منقطع النظير ووجهه يتوهج بالنشوة : - Freeze...

سألته عن معني الكلمة فقال أنها تعني أشياء كثيرة منها التجمد أو توقف العرض السينمائي علي صورة لكن لها معاني دارجة أخري لا توردها القواميس... أخذ يتحدث عن مغامراته هناك مع الطبيعة ومع الجنس ... ثم راح يروي حكايات فاحشة ونكات بذيئة حتى استقرت عيون المحيطين علينا ... لولا أنني أصاحبه من أول الليلة لظننت أنه الخمر... أسرف في الطعام

وهو يعابث المضيفات حتى أحسست بالخجل من مجونه وأخذت أتأهب للانصراف... وفجأة رجع بجسده إلي الوراء وامتلأت أساريره بشرا وحبورا وفتح فمه كما لو كان سينطلق مقهقها لكنه أخذ يقيئ، يصاحب قيئه صرخات غليظة وصوت أجش... وامتلأت عيناه بالدموع ثم راح يبكي... في الطريق إلي منزله عاود المرح مرة أخري... كنت في أشد القلق عليه... لكنني لم أعرف ماذا يجب أن أفعل. اصطحبته إلي منزله... حاول أن يصرفني فرفضت فهمس لي :

- إذن لا تقل لهم شيئا.

وفي المنزل بين زوجته الأمريكية وطفليه عاد طبيعيا تماما... دمثا رقيقا مهذبا تعلو شفتيه تلك الانفراجة التي قد تكون بسمة تعاطف أو رثاء أو احتقار... أخذ يحدث إيفيلين عن مرض نادر شخصه وعن مريض أنقذه وعن عشاء فاخر دعوته إليه... كانت إيفيلين قطعة من الحياة المتحركة تتفجر بالحيوية والنشاط رقيقة الابتسامة وديعة النظرات خفيضة الصوت لكنها عند الانفعال تطلق صرخة حادة ثم تنظر نحونا بملامح معتذرة وهي تقول بعربية مفهومة : آسفة... لم أتخلص بعد من عاداتي الأمريكية .

عند انصرافي أدركنى عند باب المصعد هامسا كما لو كان يكشف لي عن سر خطير: " هذا البلد مصيدة "

فردّدت بدهشة : " مصيدة ؟!"...

علت وجهه ملامح الهذر العابث المخيف وهو يقول : " نعم... مصيدة... ألا تعرف المصيدة والفئران "؟.

وبعد أن أغلقت باب المصعد عاد ليجذبه بشدة قبل أن يبدأ الهبوط وواصل الهمس:

- " أنا أخجل من انتمائي لهذا البلد ... لا أقول لإيفيلين ما يحدث بل أؤلف لها كل يوم عديدا من القصص... أبني لها كل يوم وطنا من الوهم... ولست أعرف ماذا ستفعل حين تكتشف الحقيقة.

في اجتماع الروتاري كنت أكثر تشتتا... أنا لا أهتم بالسياسة إلا بقدر تأثيرها علي أعمالي نعم ... لكنني أسمع وأري... و أكتشف الآن للكارثة أنني كنت أعرف بصورة ما... بشكل كلي غامض يفتقر إلي التفاصيل ما يحدث في مباحث أمن الوطن والسجون ... كنت أعرفه ولا أستنكره... بل كنت أراه طبيعيا ومتسقا مع طبيعة الأمور بل وضروريا للسلطة... لم أكن أفكر في السلطة بطريقة البسطاء والسذج والمثاليين والحالمين ... السلطة مهنة ككل المهن الأخرى... كرجل الأعمال والمهندس والطبيب والصحفي والممثل... ممتهنها يريد أن يعيش و أن يعود عليه وعلي ذويه منها أكبر قدر من المنافع والمكاسب والقوة والشهرة والمجد ... و لابد أن يكون ذلك بالصراع والتناقض مع آخرين وعلي حسابهم.

الطبيب لا يقوم بإجراء جراحة كبري من أجل المبادئ والقيم العليا بل من أجل الأجر الكبير والشهرة وهو لا يصل إلي ذلك إلا عبر عشرات أو مئات من الضحايا يكتسب الخبرة من موتهم أو من العاهات التي يسببها لهم... والصحفي لا يتورع عن أي نوع من الجرائم كي يصل إلي خبطة صحفية أو حتى لكي يحصل علي شقة على النيل... و أنا نفسي كرجل أعمال ومقاول... هل يمنعني سبب أخلاقي من الحصول علي مكسب ... هل تورعت يوما أن أسحق منافسا... أن أصل به إلي ما قبل الخراب كي أتدخل في اللحظة الأخيرة

- أنا النفس المطمئنة - متشحا بالبر والتقوى لا لكي أنقذه كما أدعي أمام الناس بل لأخرجه تماما من حلبة المنافسة... كي أترك له بالكاد ما يكفيه لمجرد أن يعيش وألتهم أنا الباقي... تلك معايير أزلية تنطبق علي الجميع ومنهم رجل السياسة ثم رجل الأمن... إن من حقه أن يؤمن نفسه وأن يسحق معارضيه، أن يترك للآخرين بالكاد ما يكفيهم لمجرد أن يعيشوا و أن يلتهم هو الباقي ... كان كل انتقادي الذي لم أصرح به أبدا منصبا علي ما يتسمون به أحيانا من غباء ... كنت أقول لنفسي أن السياسي يجب أن يتصرف بمنطق رجل الأعمال ... الحكومة موظفوه و الدولة شركته والناس مستهلكوه... و أن عليه أن يحافظ علي توازن دقيق بين الجميع و إلا كان كصاحب الشركة الغبي الذي يدفع بشركته إلي الانهيار حيث يفقد هو في النهاية كل شيء حين تتحول ممارساته إلي نهب لها و إلي عداء لموظفيها وقهر لمستهلكيها. عندها لا يكون رئيس شركة بل زعيم عصابة.

كل ذلك يدور داخل ذهني فقط... لم أقله... لم أنطق به... فلماذا تستدعيني مباحث أمن الوطن إذن وماذا يمكن أن يحدث لي هناك... و أي نفع سيعود عليهم من سحقي، قلت لناجي أن الخطأ ليس خطأ و أنها طبيعة الجنس البشري نفسه... أننا حيوانات تطورنا عبر ملايين السنين وأن بيننا وبين كل حيوانات الدنيا علاقة دم... و أن ذلك لا يطعن في البديل الديني لقصة الخلق ففيها قد خلق الجميع من ذات التراب... لكنه يفسر لماذا تجد في الإنسان صفات الأمانة والخيانة والوفاء والغدر والرحمة والقسوة والتوحش والتدني والسمو... من أجل ذلك لا تستطيع أن تنقم علي الصلب صلابته ولا علي الرصاص طراوته ولا علي الزئبق ميوعته... تلك صفات عناصر الطبيعة... ومنها خلقنا...

رغم أن ابتسامته لم تتغير إلا أنني استطعت أن أري فيها المرارة صافية مركزة لا تشوبها شائبة... وقال في بساطة:

- " لكنني عشت في بلاد أخرى لم يكن فيها الناس كذلك ".

ثم ضحك ضحكة خافتة وهو يستدرك:

- " ألم أقل لك أن هذا البلد مصيدة "...

أتبادل الابتسامات التي ليست ابتسامات والكلمات التي ليست كلمات وأشارك في التبرع لأعمال الخير و أستجيب لنداء بالاشتراك في لجنة لبحث مشكلة... لا أتبرع إلا في الروتاري أو للحكومة أو لحزبها... لم أتورط قط في التبرع لحزب من أحزاب المعارضة ولا تورطت في نشر إعلان في صحافتها... الحديث يتشعب... تنسكب أسرار الساسة والحكم علي الموائد :

- هل تعرف ما وراء هذا القانون...

- ٥٠٠ مليون جنيه هبرها في خمس دقائق... حلال عليه..

- ... .

- الممتع أنهم يصرون علي وضع أجهزة إسرائيلية في معهد ناصر...

- وماذا في ذلك ؟!...

- ... ...

- بدأ الأمر بشراء لوحة من المعرض فتوسط له... وبعدها فُتحت الأبواب...

- ما يحدث كارثة... أليس هناك واحد قلبه علي هذا البلد .

- الكارثة أنك تسأل كبار المسئولين... لا أحد يعرف شيئا عن أي شيء... حتى الوزراء أنفسهم... !!

- تقول الإيكونومست أننا متجهون نحو الخراب الاقتصادي الكامل...

قال أحدهم:

- معظمنا يحافظ علي كل أمواله في الخارج الآن... لا يحتفظ هنا إلا بالحد الأدنى.

ثم أشار إلي ساخرا :

- إلا هذا الرجل المتفائل... النفس المطمئنة... لماذا لم تشيد البرج في بريطانيا أو سويسرا أو فرنسا .

- أو حتى في إسرائيل...

في اجتماع رجال الأعمال نتحدث عن حقوق الإنسان وفي الروتاري عن رجال الأعمال فابتعد فكل الطرق تؤدي في النهاية لولوج محاذير السياسة لكن علي أن أتجنب حماقة إثارة مواضيع شائكة كتلك التي تورطت فيها في اجتماع رجال الأعمال... كل ما يتعلق بي الآن يسجل صوتا وصورة... تنبهت فجأة إلي أن صمتي أيضا سيسجل و أنه يمكن أن يحسب ضدي... فلأفعل العكس إذن... تلبستني حمية بدت غريبة علي الآخرين حين انبريت للدفاع عن النظام ... عن رفض اتهامات سياساته بالغباء أو بالخيبة والتخبط، رحت أهاجم المعارضة... لم أكن أعرف الكثير لكنني رحت أتكلم و أتكلم و أتكلم... قلت لهم أن النظام قوي ولن يسقط... وقال أحدهم وهو يرفع كأسه:

- في نخب الوزير الجديد...

قال الآخر ساخرا :

- أي وزارة عرضت عليك ؟.

عاد الأول يقول :

- هل تظنونني سكرت ؟.

قال ثالث :

- ربما قرر دخول انتخابات مجلس الشعب القادمة .

قال رابع :

- مثله لا يعرض نفسه لمهاترات الانتخاب... إنه يعرف المسالك الخفية ويمكنه بسهولة أن يعين فيه أو في مجلس الشورى...

عاد الأول يقول ور ائحة الخمر تفوح منه :

- أنا لست سكر انا يا مساطيل...

استمر الحديث... ولست أدري كيف غير مساره علي غير هواي ... .. وساءت الأمور حتى قال أحدهم :

- إن سجل هذا النظام هو الأسوأ في كل تاريخ مصر.

انبريت قائلا بحماس مصطنع :

- هل تصدق هذه الافتراءات التي تدعيها المعارضة وجماعات الإرهاب وتستغلها جهات معروفة في الخارج لتشويه النظام...

- ليست افتراءات بل تقارير موثقة لمنظمات محايدة ... أنتم تعلمون أنني عضو في منظمة حقوق الإنسان... هل تعرفون أنه في نصف العام الأخير فقط مات في المعتقلات عشرون معتقلا.

سألته متحديا عازما علي إثبات خطئه :

- كم عدد المعتقلين ؟.

- يتجاوز الثلاثين ألفا .

قلت له بزهو و أنا أفحمه بأن أهزمه بنص قوله :

- رغم يقيني أن العدد أقل بكثير إلا أنه طبقا لأرقامك أنت نفسك فإن من يتوقع أن يموت موتا طبيعيا من هؤلاء المعتقلين أضعاف العدد الذي

ذكرته.. لوكانت نسبة الوفيات الطبيعية واحد فى الألف فقط لمات فى العام ثلاثون.

طالعتني عيناه بألم مندهش و اندفعت الكلمات من بين شفتيه ومن قلبه بين الهمس والصراخ :

- بل من التعذيب والتجويع والإهمال المتعمد للمرض .

انتقلت عيناه بيننا كأنما ليسبر أغوارنا و يتفحص تأثير كلماته علينا ثم واصل:

- لقد شاهدت جثة أحدهم... كان قد اعتقل ثمانية شهور أفرجت المحكمة فيها عنه مرتين لكنهم واصلوا اعتقاله ... قبل اعتقاله كان وزنه تسعين كيلوجراما ... أما وزن جثته فقد كان خمسة وثلاثين كيلوجراما... كان يشبه المومياوات المحنطة... وكانت ساقه اليمني مكسورة وكتفه الأيسر مخلوعا.

واصلت الهجوم منتشيا بتخيل أن اللواء حسين بركة يسمع الآن في مكتبه ما أقول :

- لمصلحة من تشوهون السلطة الوطنية مرددين شائعات الجماعات الإرهابية... هل أنت عضو في حزب من أحزاب المعارضة؟.

رد الرجل ضاحكا في مرارة :

- علي الإطلاق ... ثم أنني مسيحي أيضا ... ورغم ذلك لست محصنا من الاتهام ذات يوم بأنني من الجماعات الإسلامية!! .

انفجروا ضاحكين ... وقلت لنفسي أن موقفي في الحديث هنا أفضل بكثير مما حدث في اجتماع رجال الأعمال... امتد الحديث بعد ذلك إلي ما كان مزيج الفضول يدفعني إليه والرعب يدفعني عنه... هل يعذبون المعتقلين فعلا ؟ وبكل هذه البشاعة التي نسمع عنها ؟ ولماذا ؟ وذلك ليس في صالحهم

بل لغم سينفجر في أي وقت فيهم... التزمت جانب التكذيب والدفاع عن النظام والحكومة طيلة الوقت ... كان عضو المنظمة يردد تلك الكلمات التي لا أطيقها لكن المضطر يركب الصعب... تلك الكلمات التي لا تساوي ثمن الورق الذي كتبت عليه ... الكلمات التي لا تستطيع أن تحولها إلي أرقام رياضية وبالجمع والطرح والضرب والقسمة تعلم إن كانت خاسرة أم رابحة... كلمات من نوع :

" قد أخالفك في الرأي لكنني أموت دفاعا عن حريتك في التعبير عنه "... وكدت أقول له أن الحياة هي القيمة العليا وليس من حقك أن تفقدها لا في سبيل الدفاع عن حرية الآخرين ولا عن حريتك أنت نفسك... و أن دون هذا هراء... لم أقل... إعياء لم أقل... يأسا لم أقل... ولأنه لا فرق بين أن أقول أو لا أقول فلم أقل... وواصل هو الحديث عن : " الإشكالية الخاصة المميزة لقهر السلطة في المرحلة الراهنة من تطور الكفاح الديموقراطي" و"الانعكاسات الحتمية والدلالات العقلية لتطور النظام السياسي ومستقبل الديموقراطية وبناء الأمة في بلادنا " و"ميراث الشك والنفور من السلطة " و " تآكل قاعدة المشروعية للنظام السياسي " .

كان ترديد مثل تلك الكلمات الجوفاء في أي محفل كافيا لانصرافي علي الفور... وقتي أثمن من أن أضيعه في الكلام الفارغ ... لكن ذلك كان في عصر بائد زال و انتهي و انمحت آثاره ... عصر ما قبل استدعاء مباحث أمن الوطن لي ... الآن ليس لك وقت وليس لك زمن وغدا قد لا يكون لك جسد فأرهف السمع إذن و أنصت ولن ينقذك هذا الكلام الفارغ الأجوف من المصير لكنه

قد يتيح لك بصيصا من الضوء لعلك تفهم... قال عضو المنظمة أن المسألة أعقد بكثير مما يبدو في الظاهر... أنها مشكلة سياسية اجتماعية أجل... لكنها اقتصادية بالأساس . .

قاطعته متصنعا السخرية فاشهد يا سيادة اللواء حسين بركة :

- إن كانت اقتصادية فهذا مجالنا ونحن الذين نتحدث فيه .

وكأنه - لا هو ولا الآخرين - لم يسمعني إذ واصل قائلا :

- نحن في المنظمة لم نكتف بإدانة ما يحدث وشجبه وفضحه والتنديد به ، فلقد أجرينا دراسات علمية متكاملة لدراسة الظاهرة ، ولقد وصلت دراستنا إلي أن الأمر لا يتعلق بسوء نية مبيت ، ولا برغبات شريرة ومدمرة ، ولا لتخلف الحكام والمحكومين ولا لأننا نحتل درجة أدني في حلقات تطور "دارون" بقدر ما هو نتيجة لطبيعة الهيكل السياسي والاجتماعي الذي تفرض آلياته هذا الأسلوب من قهر الناس أفرادا وجماعات . ذلك أن افتقاد السياسة للكفاءة والنزاهة يؤدي إلي تدهور الاقتصاد الذي يؤدي بدوره إلي التذمر الذي يجب قمعه وإلا استشرت نيرانه لتحرق النظام .

كنت أمور بالمشاعر والقلق والخوف واليأس والرغبة في الفهم... رحت أشيد كلماتي و أطلها بالغضب المصطنع الذي قد يُحسب لصالحي في استدعاء الغد وفي نفس الوقت لا ينهي حديث الرجل... قلت :

- بافتراض أن كلامك صحيح - ولا أحسبه كذلك - فهل تعني أن الحكومة و مؤسسة الرياسة علي علم بما يحدث ؟.

علا ضجيج وتبودلت همسات و انتثرت تعليقات :

- العالم كله يعرف...

- أنا شخصيا لا أصدق...

- لا يفعلون ذلك إلا مع من يستحق...

- أبدا... ليس من حقهم...

- مسئولية الرئيس ولا أحد سواه...

- بل صغار الضباط...

- يحدث...

- لا يحدث...

- إن كان يدري فتلك مصيبة... و إن كان لا يدري فالمصيبة أعظم... !!

صمت عضو المنظمة حتى عاد الهدوء فواصل :

- ليس ذلك مهما ، ولكي أجيب علي سؤالك فإن ذلك لا يعني أن قمة السلطة قد عكفت علي صياغة سياسة تقوم علي العقاب والتعذيب والقهر، بل قد لا تكون قمة السلطة على معرفة تامة أو أعطت مو افقتها علي غالبية ما يحدث ، علي الأقل فيما يتعلق بالتفاصيل ، غير أن ذلك لا ينفي مسئوليتها عن مجموعة السياسات التي تؤدي إلي تفشي تلك الظواهر، إن تردي الأداء الوظيفي للدولة و انعدام كفاءة الساسة وغبائهم جعل مهمة تأمين النظام تقع لا علي كفاءة سياسات الدولة بل علي قوة أجهزة الأمن ، إنها بسياساتها الفاشلة تفتقد الأمن فتلجأ إليه عن طريق رجال الأمن لتكون المقايضة البائسة : الأمن المطلق للسلطة مقابل إطلاق اليد المطلق لرجال الأمن، أي غَـلَّ لليد تقويض للأمن ومبرر لانتفاء المسئولية عن المخاطر، بل وأي مراجعة دورية لأعمالهم وأي حساب أو عقاب ستؤثر في الروح المعنوية للقائمين علي الأمن وستطفئ حماسهم المتقد لحماية النظام، ذلك من ناحية، من ناحية أخري فإن رجل الأمن عندما يعاين بنفسه فساد رجل السياسة الذي يحميه يفسد هو الآخر ، ولقد واكب ذلك كله ازدياد نسبة التضخم واستحالة الحياة الكريمة بالدخل الحكومي لأي موظف، ومع انتفاء المعايير والقيم فقد أدي ذلك إلى استشراء عمليات الخصخصة لتطول أجهزة الدولة نفسها .

كان بصيص من الفهم قد بدأ يتسلل إلي... لم تكن الكلمات عصية على الفهم ولا جوفاء كما ظننت قبل ذلك... لكنني بالرغم من ذلك أبديت الاستنكار:

- خصخصة أجهزة الدولة... هذه أول مرة أسمع هذا التعبير.

واصل الرجل حديثه :

- خصخصة الدولة تعني الاستيلاء علي سلطاتها وأدواتها بواسطة مصالح خاصة وللحصول علي مزايا خاصة، وذلك يحدث علي المستوى الخارجي والداخلي أيضا، ففي الخارج مثلا تتحول السفارات من ممثلة لمصالح الوطن إلي مندوبين لطغمة من ناهبي الوطن، وتتحول المخابرات من وظيفتها إلي إبرام أفضل الصفقات لا للوطن بل للفاسدين المفسدين فيه، وفي الداخل تتحول مؤسسات نشر الثقافة والفكر واكتشاف المواهب الجديدة عن وظيفتها الحقيقية ليكون العاملون فيها مجرد قوادين يوردون لمن في يدهم مقاليد الأمور أفضل الفتيات و أجملهن بعد إغوائهن و إغرائهن في المسابقات المختلفة، وقد امتدت هذه الظاهرة جزئيا إلي جهاز الأمن تحت تأثير نفس الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تتم بها في هيئات و أجهزة الدولة الأخرى، فبسبب افتقاد المعايير والقيم والهدف القومي والمثل الأعلى وبسبب ضآلة وجمود مرتبات ضباط الشرطة الكبار فإن منفذهم الرئيسي للصعود الاجتماعي، و أحيانا لمجرد قضاء حوائج المعيشة، هو التحالف مع الطبقات أو الأفراد الذين يملكون السلطة والثروة، وهم في نفس الوقت الذين يباشرون الدور الأكبر في عملية تخصيص الدولة والمال العام ، ولقد حول ذلك بعض الضباط إلي أحد نموذجين: نموذج الفتوة المهني أو نموذج الفتوة البلطجي، وكليهما يتصرف في غيبة كاملة من القانون وفي أمان مطلق من المراجعة والعقاب .

ثم وجه الحديث إليّ قائلا :

- تقول أنك أول مرة تسمع مثل هذا الكلام... لكنه موجود في كتب المنظمة المنشورة.

وجدت الفرصة مواتية لتسجيل نقطة لصالحي في لقاء الغد فقلت له :

- ألا يدل مجرد السماح بنشر هذه التقارير والكتب علي كذب جميع ما ورد فيها ؟.

كان الرجل يشبه أستاذا من أساتذة الجامعة يلقي محاضرة، ولولا الكارثة المحلقة في سمائي لما اهتممت بما يقول... انفرجت ملامحه وهو يواصل توجيه الحديث إلي:

- ذلك موضوع آخر، لأنهم في توازن دقيق بين رغبتهم في التشبث بالسلطة مهما كانت الكوارث من ناحية... وحرصهم من ناحية أخرى علي الحفاظ علي مظهر متحضر أمام العالم... ليس لمجرد المظهر طبعا بل ليساعدهم الخارج علي توطيد سلطتهم... لكن ذلك كله موضوع آخر... فلنعد إلي ما كنا فيه... لنأخذك أنت نفسك كمثال... هل تستطيع أن تعيش كلواء شرطة بمرتب لا يصل إلي مرتب سكرتيرتك الخاصة وبمعاش أقل من هذا بكثير... و إزاء هذا: بعد استثناء القلة ، هل توجد خدمة لا يؤديها هذا الضابط لك مهما خالفت القانون في سبيل توطيد علاقته بك، علي الأقل ليضمن عملا عندك بعد إحالته للتقاعد؟... ومن الجانب الآخر هل يمكن أن يوجد شيء يتورع هذا الضابط عن عمله ضدك لصالح قوة أخري قد يفيدها تحطيمك أو تحجيمك .

تحطيمك تحجيمك... ... ...

جاءتني كلمات الرجل غاضبة من خلف ضباب وكأنني منوم:

- ثم كيف ترفض أن تصدق أنت بالذات... ألم تكن صديق الدكتور ناجي... إن ملفه موجود عندنا في المنظمة ولو شئت الاطلاع على ما فعلوه به فسوف أرسله إليك، لقد أبلغتنا زوجته بما حدث... و أظنك تعلم أنها ليست من الإرهابيين ولا هي منتمية لحزب معارض... أبلغتنا عن طريق المقر الرئيسي للمنظمة ... كما أثارت ضجة هائلة في أجهزة الإعلام الأجنبية وإن كانت أجهزة إعلامنا تكتمت علي الأمر كعادتها... فجرت الأمر أيضا في المنظمات النسائية وروت حكايات لا تكاد تصدق... ولقد تابعنا الأمر... لم تكن تهمة الدكتور ناجي سياسية ولكن بعض أعدائه كانوا سياسيين وذوي سلطة... ومن أجل ذلك تدخلت مباحث أمن الوطن ضده... لقد استقصينا الأمر... اتصلنا بمعظم معارفه... عجز مندوبنا عن لقائك رغم توجهه إليك مرات عديدة ... لكننا في النهاية عثرنا علي شهود أقروا بأنهم شاهدوه وهو...

لا أسمع... لا أريد أن أسمع... لا أرغب... لا أقدر... تواصل شفتا الرجل التحرك ويداه الإشارة وعضلاته الانبساط والانقباض لكنني لم أعد أسمع فما أبشع الدوار.

(٨)

في حفل عقد القران لم ينجح الحفل الصاخب في تبديد غيوم الكآبة والقلق داخلي . .ألف مدعو من وجوه الوطن... أعرف معظمهم معرفة عابرة من حفلات مماثلة... انبثق التساؤل داخلي فجأة... لماذا لم يحدث أبداً أن قابلت في مئات أو آلاف المناسبات التي حضرتها شخصا يصرح بأنه يعمل في مباحث أمن الوطن... هل يحرم عليهم حضور المناسبات الاجتماعية أم أنهم يحضرون لكنهم يخفون حقيقة عملهم فلماذا يخفونه... أحرصا علي سر أم سترا لعار... كالسافاك والموساد والـCIAأم أنهم كالجن والعفاريت لا يظهرون إلا لتعيس مثلي...

هــل كلام عضو المنظمة صحيح ؟ أعرف أنه صحيح فيما يتعلق بالدكتور ناجي علي الأقل... هل صحيح أن الدكتور ناجي أخفى عني ما حدث له؟؟... أم أنني كنت حريصا علي ألا أعرف ... فالمعرفة كانت ستدفعني إلي موقف... والموقف كان يمكن أن يكون خطيرا ...

يتبادلون الأنخاب... أشرب عصير الليمون فبعد أن هداني الله لم أعد أقرب الخمر.

هل يمكن أن يكون ذلك هو السبب؟... هل دفعهم ما اشتهر بين الناس مؤخرا عن تقواي وصلاحي و أنني رجل البر والإحسان والنفس المطمئنة إلي الشك في قيامي بدور سياسي لصالح جماعات الإرهاب؟.

سيطرت الفكرة علي... تضمحل الاحتمالات الأخرى وتبدو هذه الفكرة هي الاحتمال الوحيد... اندفعت إلي البار لا ألوي علي شيء و طلبت الكوكتيل الذي اشتهرت به قبل أن أتوب ... ها أنذا أشرب الخمر فاشهد يا سيادة اللواء

دليل براءتي... لو أن التليفزيون يصور الآن ليعرض ما يحدث علي الناس جميعا ومنهم اللواء حسين بركة...

لو أنهم في مباحث أمن الوطن يسجلون ويصورون ما يحدث في هذا الاجتماع... لو أن لهم عينا هنا تكتب تقريرا عما يحدث... لو... لو... حاولت قدر ما أستطيع أن ألفت انتباه الجميع إليّ... غدا كونوا شهودي... وتناثرت التعليقات :

- قليل منها يصلح العقل !!.
- لكم فيها منافع !!.
- التوبة أزكي والفسق أشهى !!.

كنت أقول في فتور بائس :

- نصحني الطبيب بالقليل منها .

كنت أتمتم :

اغفر لي يا رب... أنت غفور رحيم تحب العفو لكن مباحث أمن الوطن ليست عفوة ولا غفورة وتحب العقاب.

شملني دوار و أنا في الطريق إلي قصري، ثمة حامض مرتجع من المعدة ونار تشتعل خلف القلب وغثيان وطوفان ذكرى لا يغيض... ملف الدكتور ناجي... هل تطلبه حقا من عضو المنظمة... لماذا لم تصر علي معرفة الحقيقة منه... رغم ممانعته لماذا لم تصر ... سمعت الحكاية من أصدقائه ومن أعدائه... تتفق الحكايتان في البداية... حين كان الدكتور ناجي يشغل وظيفة رئيس أحد أقسام القلب في هيوستن حيث يتردد معظم المسئولين الكبار والوزراء... ظلوا أعواما يلحون عليه... بلدك أولى بك يا دكتور ناجي. مسئوليتك تجاه الوطن... نحن في حاجة إليك... ماذا سيحدث للبلد إذا هجره أفضل عناصره و أصروا علي عدم العودة.

أنت عبقري يا دكتور ناجي... أنت خبرة نادرة ومصر تحتاج إليك... في البداية اعتبر الكلمات مجرد مجاملة... لكن الإلحاح زاد من أشخاص بعينهم... لديك طفلة سرعان ما تصل إلي السادسة عشرة فهل استطعت التخلص من عاداتنا وهل تسمح لطفلك هو الآخر أن يفعل ما يفعله أقر انه هنا عندما يصل إلي الخامسة عشرة... في النهاية قدموا له عرضا محددا مؤكدين:

- "لا يمكن أن يتكرر هذا العرض مرة أخري "... عميد لكلية الطب مع وعد بتحويل الكلية إلي صورة طبق الأصل من هيوستن... سنمنحك اعتمادا مفتوحا وصلاحيات مطلقة.

كان في التاسعة والأربعين من عمره في ذلك الوقت ... قال لإيفيلين : مازال الطفلان صغيرين ويمكن إعادة تشكيل شخصيتهما لو قررنا الانتقال ولو تأخرنا لن نستطيع . كانت هذه هي بداية حضوره إلي القاهرة... وعند هذه النقطة يختلف أعداؤه مع أصدقائه... فيقول أعداؤه أنه في خلال شهور ستة تولى فيها العمادة اختلس مائة و خمسين مليون جنيه من مباني وتجهيزات المستشفي الجديد... و أنه ما جاء إلا ليختلس... ويقول أصدقاؤه القليلون أن الاختلاس في مثل هذه المشروعات عمل فريق وليس عمل فرد... وأن الخطة قد دبرت منذ البداية بإحكام شديد... وأن الاختلاس كان قد تم قبل حضوره وأن من أغروه بترك هيوستن والحضور هم أنفسهم المختلسون... وأن لهفتهم لحضوره كانت لتوريطه في مسئولية الاختلاسات وتبرئة ساحتهم... كانوا من كبار القوم وكانت علاقاتهم متشعبة في كل مكان وكان فردا ... كان مثاليا بالنسبة لهم... فهو يكاد يكون أجنبيا... غريبا عن الوطن... وهو بعيد فلا يسمع ما أثير وما يثار عنهم... ثم أنه يجهل على الإطلاق

القواعد المقدسة للروتين والأرشيف والتعليمات والقوانين... لم يمكث عميدا سوي أقل من عام... ثم تناوبته النيابات و أجهزة الرقابة... وقبل أن يدرك ما يحدث له عزلوه من منصبه وأوقفوه عن العمل... حتى ساعتها لم يدرك خطورة الأمر... أخيرا جدا تحت ضغط أصدقائه قرر اللجوء لمحام... فطلب منه بعض الأوراق فأجابه أنه لا يحتفظ بأي أوراق... احتج المحامي قائلا:

- هل تظن نفسك في أمريكا، كل مسئول هنا يحتفظ بما يثبت عند الضرورة أنه ليس لصا، وكلما كان لصا أكبر كانت أور اقه تلك أكثر إتقانا...

وأجابه ناجي بأنهم وعدوه بأن الإمكانيات بلا حدود و أن الصلاحيات مطلقة و أنه لم يعن إطلاقا بالاحتفاظ بأية أوراق ثم أنهم تكفلوا هم أنفسهم بتجريده منها أولا بأول وكان يعد ذلك مكرمة منهم وفضلا...

ذهب إلي الكلية التي عزلوه من عمادتها وفصلوه منها ليبحث عن صور للمستندات حيثما كانت لكن ضابط الحرس منعه من الدخول فثار وأصر علي الدخول وهو يحاول إقناع الضابط:

- أي مريض يسمح له بالدخول فاعتبرني مريضا.

ولكن الضابط صفعه، وثار ناجي فذهب إلي القسم ليحرر محضرا بالو اقعة، لم يقل لأحد ماذا حدث له عندما احتجزوه في التخشيبة ليلتين... لكنه بعد تدخل بعض أصدقائه خرج من القسم ليقدم بلاغا إلي النيابة... وحاول متابعة البلاغ حتى يئس... تجنب إثارة الأمر كله في الصحف تجنبا لتسرب الفضائح، لكنها انتشرت عندما حركها خصومه،

حاول الرد فامتنعت الصحف عن نشر رده، ولجأ إلي صحافة المعارضة ففوجئ وفوجئوا بقرار بحظر النشر...

تهادى الشبح في الشوارع النظيفة الواسعة... لماذا تلح الليلة عليّ يا ناجي... كفاني ما بي... لكن هل كان لمباحث أمن الوطن هي الأخرى دور معك كما قال الرجل؟...

هل كلما ولينا وجوهنا في هذا البلد فثمة مباحث أمن الوطن ؟؟.

أمام قصري انخلع قلبي رعبا... تسارعت دقاته وعلا وجيبه وارتعشت مفاصلي... غاض الدم في عروقي... بردت يداي وارتجفت أصابعي... فقد وجدت سيارة شرطة ضخمة في مواجهة القصر... بلونها المخضر البادي القبح والذي يحار المرء في تحديد درجته... وصاجها الصلب المبرقع ببقع حمراء باهتة ... كأنها بقايا دماء تلوث فم وحش مفترس. بدت أشباح الجنود الر ابضين داخلها وخارجها لا تقل وحشية عن هيكلها الفولاذي.

حاولت أن أتمالك نفسي. في صوت ضعيف أمرت السائق أن يعود أدراجه إلي وسط المدينة، رغم محاولتي لم يخل صوتي من الارتجاف... غير السائق اتجاهه وواصل السير وهو في دهشة من أمري...

أتصبب عرقا... في هواء السيارة المكيف لا أعرف إن كان الجو في الخارج باردا أم حارا... منذ أكثر من عشرين عاما لا أستغني عن تكييف الهواء في أي مكان أكون فيه... فكيف لو انتهت مقابلة الغد بإلقائي في زنزانة رطبة مختنقة بلا نو افذ ولا حتى فراش... تدب السيارة في الشوارع... القاهرة غير القاهرة وليست هي المدينة التي عرفتها خمسين عاما... الشوارع أقبية وسراديب والميادين كهوف والعمارات الضخمة المشرعة شياطين عملاقة وغيلان تحيط بأسراها تلتهمهم الواحد إثر الواحد وقد جاء دوري...

من قال لي أنهم هناك يبولون ويغوطون ويشربون من نفس الأو اني... لن تحتمل ذلك يا علي هاشم وفي اليوم الأول ستمرض وفي الأسبوع الأول ستموت... هل ينقلونك إلي المستشفى إن ساءت حالتك... من حكى لك عما حدث للمهندس عبد العظيم أبوالعطا وهو الوزير السابق المشهور... حين تركوه ينزف في السجن وكان مر افقوه من كبار القوم في البلد...

توسلوا إلي إدارة السجن أن تنقله إلي المستشفى... أي مستشفى حتى ولو كانت مستشفى السجن التي لا تصلح بالمقاييس العالمية مستشفى للحيو انات... مستشفى للحيو انات...

لو اكتشف في الخارج مستشفي كهذا لأدخلوا القائمين عليه السجن... الدكتور حمدي عبد الله، ابن أحد أصدقائي كان طبيبا هناك، قمت بالواجب الاجتماعي بزيارته في مصحة خاصة للأمراض النفسية بعد إصابته بانهيار عصبي... حدثني أبوه عن ضغطهم عليه كي يقرر أن المعتقل يحتمل التعذيب... كي يخلوا مسئوليهم إذا ما مات أحد... كان حمدي يرتجف بعينين غائمتين وهو يروي - كأنما يرى - عن القيود التي تربط المريض الموشك على الموت بسريره... وعن الجروح الناتجة عن التعذيب والتي بمجرد كشفها يتقافز منها آلاف وملايين من الديدان التي تنهش في لحم الضحية... تحدث عن سوء التغذية... عن إجراء التحاليل الطبية للمرضى... فإذا ما ثبت أن هناك نقص في عنصر ما صدرت الأوامر بمنع الأدوية أو الأغذية التي تحتوي علي هذا العنصر منعا تاما... خاصة إذا كان الضحية معتقلا سياسيا.

قال أنه شعر أنه جلاد لا طبيب ... فهو بمشاركته في منع العناصر الأساسية الناقصة في جسد المريض كان يدفعه للموت ببطء... تحدث عن عشرات رآهم بعينيه يموتون دون أن يستطيع أن يقدم لهم أي عون... تحدث عن المرضي الذين أعطاهم عقارات الهلوسة كي يعترفوا...

وعن الذين جعلوهم يدمنون المخدرات بالرغم منهم حتى يتحطموا... وتحدث عن قيام ضباط مباحث أمن الوطن بالتعذيب داخل المستشفى... تحت إشر افه... وهو ما بين كل جولة عذاب وأخرى يقوم بتسمع القلب وعد النبض وقياس الضغط... ويحقن المسكين بالمنشطات كي يسترد وعيه... كي يواصلوا التعذيب... قال لي أبوه... صديقي... أنه لم يكتشف فداحة الأمر إلا عندما استيقظ ذات مرة من نومه علي صراخ حمدي وهو نائم... كان يناشدهم... يتوسل إليهم أن يكفوا...

وعندما أيقظه اكتشف أنه بال في فراشه، فبدأ العلاج... واصلت الاطمئنان عليه... اكتشف عبدالله أشياء مروعة عندما أخبره ابنه بما يحدث هناك... صرخ فيه باكيا:

- لماذا لم تخبرني منذ البداية...
- فأجابه : وماذا كنا نستطيع أن نفعل وقد سعينا نحن للعمل هناك للاستفادة بمز ايا الشرطة.

وواصل حمدي أنهم في البداية أقنعوه أن ما يحدث هو جهاد في سبيل الوطن... وحينما بدأ يظهر بعض الاعتراض حذروه من أن الأمور لا تجري هناك كما تجري في الخارج ... و أنه يمكن بمنتهى السهولة أن يفسر تعاطفه مع الضحايا بالتواطؤ معهم ... وساعتها سيتعرض لنفس ما يتعرضون له كي يحصلوا علي اعتر افه ليحاكم بعد ذلك أمام محكمة عسكرية... و أنه إزاء ذلك التهديد أصابه رعب هائل جثم عليه ولم يجد منه منفذا للخلاص ... صرخ فيه أبوه: - ولماذا لم تخبرني أنا على الأقل ...

وأجاب حمدي باكيا :

- كنت أخجل من نفسي ومن الاعتراف بما أفعله، ومن ناحية أخري كنت أخشى عليك منهم، فليس لديهم كبيريا أبي، ليس عندهم كبير، وكنت أتخيلك هناك يفعلون معك نفس الشيء... لذلك لم أخبرك ...

حين أصر عبد الله علي نقل ابنه من مستشفى السجن قوبل إصراره بالرفض البات ثم بالتهديد... صرخ فيهم أنه سيلجأ إلي نقابة الأطباء فردوا عليه بحركة بذيئة... هددهم باللجوء إلي الوزير فضحكوا... وعندما صرخ أنه سينشر نداء إلي الرئيس في الصحف ازداد ضحكهم... وبعد وساطات عديدة رزقه الله بابن الحلال الذي أرشده كيف تفتح الأبواب الموصدة... وو افقوا أخيرا علي سفر حمدي في بعثة دراسية إلي إنجلترا علي أن يتعهد بالعودة للعمل في نفس الوزارة... وقبيل سفره استدعوه في مباحث أمن الوطن... قالوا له أنه خلال سنوات البعثة سينضج... سيكف عن أن يكون طفلا... وسيفهم أن ما يفعلونه إنما هو لحماية أمن الوطن... و أنهم يراهنونه أنه عندما يعود سيكون أكثر حماسة منهم لفعل نفس الأشياء... أما إذا قرر عدم العودة... أو فتح فمه... فإن أيديهم طويلة في الخارج... وأينما يكون سيدركونه... و أنه لكي يعبر عن حسن نواياه وسلامة طواياه لابد أن يكتب لهم تقريرا تفصيليا دوريا عما يحدث من زملائه في الخارج وعما يتفوه به المرضي المصريون والعرب من أسرارهم في النزع الأخير.

جعلوه يوقع علي عشرات الأوراق البيضاء... قالوا له أن هذه الأوراق لن تستعمل إلا إذا خانهم... و أن ما يمكن أن يسودوها به سيكون كفيلا بلف حبل المشنقة حول عنقه... لكن ذلك لن يتم إلا بعد أن يتعرض لنفس ما تعرض له من أصيب بسببهم بالانهيار...

كان عبد الله يبكي وهو يحكي لي... كان انهيار ابنه قد و افق اعتقالات سبتمبر الشهيرة... قال لي :

- هذا البلد مجنون يا علي ، و أي واحد منا يمكن أن يكون ضحيتهم في أي يوم... أي واحد يا علي ... السياسة في جميع بلاد الله بلا قلب لكنها في بلادنا دون عقل أيضا ... بلا عقل وبلا أخلاق و بلا ضمير يا علي ... إنهم يفعلون أي شيء ... أي شيء يا علي... لقد سمعت من شهود العيان أنفسهم ما حدث لعبدالعظيم أبوالعطا الذي اعتقلوه وهو مريض... كان مر افقوه يتوسلون لنقله إلي مستشفي السجن، كانوا يكفون لتشكيل حكومتين كما عبر أحدهم في سخرية مريرة لكثرة من فيهم من وزراء سابقين... أخذ ينزف ... أكد لي مصدر ثقة أن الكاميرات التليفزيونية الخفية كانت تنقل للرئيس ما يحدث حيا على الهواء مباشرة ... وعبدالعظيم أبوالعطا يموت... ورفاقه يحاولون سد النزيف المنبثق من رئتيه بأيديهم.

قلت له أنني لا أصدق أن الرئيس يمكن أن يفعل هذا... رحمه الله... ربما حاشية السوء حوله... كان هو نافذتنا جميعا إلي الثروة... واصل كأنه لم يسمعني :أي واحد يا علي... أي واحد يمكن أن يكون ضحيتهم القادمة... حتى أنا و أنت... أي واحد يا علي... نصحته ألا يفكر كثيرا في هذه الأمور و أن يشغل نفسه بالعمل فقال أنه لم يعد يهمه أي شيء...أنه يشعر بالندم وبالذنب كأنه مسئول عما حدث لابنه ... و أنه أصبح يكره العمل والدنيا... ويكره نفسه ... أنه توقف عن العمل ويخسر صفقات بالملايين فلا يهتز له طرف.

حاولت أن أقطع الحديث الذي كان يؤذيه ... ولكي أخفف عنه قلت له ضاحكا أن من لم يمت في عهد عبد الناصر لن يموت ومن لم يغتن في عهد السادات لن يغتني ومن لم يفلس في هذا العهد لن يفلس... فحاذر... لأن وضعك الاقتصادى يمكن أن يهتز بسبب كل هذا.. لم يضحك...و لم يلق بالا إلي ما أقول وواصل حكايته:

- تهاووا مجهشين بالبكاء عندما تهاوي عبد العظيم أبو العطا ميتا بين أيديهم.

(٩)

لماذا يريدونني في مباحث أمن الوطن غدا...

هل أجد هناك من يبكيني عندما أموت ؟... هل أجد حتى من يحاول أن يسد نزيفي ولو بخرقة...هــل شغلتني الدنيا بعد ذلك عن عبدالله وحمدي ؟... أم أن جهاز الإنذار داخلي قد حذرني من احتمال خطورة العلاقة بهما... كنت دائما أبتعد أمام أي بادرة للخطر... .. فلماذا استدعاء الغد إذن ؟...

لم ألق عبد الله إلا بعد ذلك بسنوات حينما ذهبت أعزيه في حمدي الذي انتحر بإلقاء نفسه من شقته بالدور الحادي عشر في لندن... استبقاني بعد انتهاء مراسم العزاء ليقول لي بحرقة دون مقدمات كأنما يواصل الحديث الذي انقضي منذ سنوات ست أو سبع :" قتلوه يا علي "...

قلت له " اصبر واحتسب" ثم واصلت : " أنت تعرف ما أصابه من توتر ومن اكتئاب بعد ما مر به ومن المتوقع أن يحدث منه ما حدث تحت ضغط التوتر" فأجابني : " لا يا علي... كان قد رفض الحضور في الإجازات منذ ذهب ... أرسلوا له من يحذره... ثم من يهدده... هددوه بأخذي أنا و أمه رهائن حتى يعود... بأنهم سيفعلون بنا ما يعلم... حاول مداورتهم بأنه مشغول بالدراسة... و أخذ يتوسل إلي أن أترك هذا البلد المجنون... أن أنقل كل نشاطي وثروتي للخارج ... لم أقدر خطورة الأمر... كنت أحسب أن الأحوال في البلد تتحسن ...لكنها تسوء يا علي... تسوء... كل يوم أسود من سابقه... بعد حصوله علي الدكتوراه قرر نهائيا عدم العودة لكنهم رفضوا تجديد جواز سفره ورفضت السلطات هناك منحه إقامة فاتصل بمنظمة حقوق الإنسان... وكان مفعما بالأمل عندما وعدوه بالاتصال بالسلطات هناك

لحمايته... كان قد شفي تماما بعد أن فضح لهم كل شيء ... تخلص من خوفه وو افق المنظمة علي نشر اعتر افاته... وقرر بمساعدتهم التقدم بطلب للجوء السياسي... أثناء كل ذلك لم يكفوا عن تحذيره.

قالوا له: لا تعتمد على منظمات حقوق الإنسان فهى جزء من اللعبة العالمية.. وقالوا له أيضا: نحن أيضا جزء فى هذه اللعبة ولا تتخيل أن من عندك بشر أرقى منا.. قال لهم أنه سيفضحهم فى العالم كله.. و أنه سيكتب كتابا يفضح فيه كل ما يجرى وسينشره فى الصحف.. هاتفنى.. قال لى كل ذلك.. وتوسل إلىّ أن أهرب بأقصى سرعه.. حتى أنا لم أصدقه يا علي.. لم أتصورهم بكل هذه البشاعة والوحشية والقسوة.. قتلوه في نفس اليوم ... لقد قابلت أصدقاءه ومعارفه من العرب وحتى الإنجليز حينما ذهبت لإحضار جثته... ولقد أخبروني أن هناك تواطؤاً من سكوتلانديارد، سأعود إليهم يا علي... ولن أرجع إلا بالحقيقة كاملة ".

كان ذلك آخر عهدى به، فبعد شهور من لقائنا ذاك و من عرقلة محاولاته للسفر ذهب... لكنه لم يواصل البحث سوي أسبوع واحد أصيب بعده بنزيف في المخ... و مات .

سألني ناجي عنه... في تلك الأيام التي كانت الأحداث تمر عليّ فيها مر السحاب... حين لم أعر الحادث نفسه ولا سؤال ناجي عنه اهتماما أكثر من اهتمامي بصديق... لم يتجاوز الأمر ذلك ... فيلم سينمائي أو مسرحية تنفعل بها طيلة العرض ثم تنساها فور انتهائها... قال لي أن الإذاعات الأجنبية أثارت قضية ذلك الطبيب بطريقة تشكك في إمكانية حدوثها بالصورة التي ادعاها في شكاواه لمنظمات حقوق الإنسان وطلب لجوئه السياسي... تحدثوا عن الهلاوس السمعية والبصرية والحسية.

لهف قلبي عليك يا ناجي... كنت تكابد أيامها ما أكابده أنا اليوم ... لم أفهم سبب مرارتك... ولم أفهم أيضا سبب حملتك أيامها علي الإعلام الغربي و أنت الغربي لحما ودما وروحا وزوجة و أبناء... حين رحت تردد كأنما أصابتك حمى:" كنت أظنهم أسوياء وموضوعيين... العالم كله مجرم".

ثم أخذ يهمس كما لو كان يهذي أنه كان يتمني ألا ينجب طفلين آخرين في مصر... فسألته : " ألأنك تؤمن بتحديد النسل " فأجابني : " لا... لكن هذه بلاد شقية ... متوحشة... تفترس أبناءها... لذلك علينا ألا ننجب لها أبناء"

ولما أبديت دهشتي واصل :" ليس أمام الناس هنا إلا أن يكونوا طغاة أو عبيدا أو لصوصا "... ثم أردف قائلا وهو يضحك : " الحقيقة أن الثلاثة في واحد ...فقط تختلف النسب".

تمعن في وجهي... وقال بطريقة سوقية تختلف اختلافا بينا عن طريقته الأنيقة في الحديث : " كشري!!"...

كُفّ يا سيل الذكريات المنهمر وغض أيها الطوفان... هل تهرب مما يواجهك به الغد بالغوص فيما حدث للآخرين... أم أنك تستعيد ما حدث لهم كي تدرك ماذا يمكن أن يحدث لك غدا... أم أن الرو ابط التي تربط مخك بجو انب جمجمتك قد انفكت و انفرط عقلك ففقدت القدرة علي التحكم فيه... القدرة علي التركيز علي فكرة و إكمالها حتى نهايتها... لماذا كانت السيارة الضخمة تقف أمام قصري كأخطبوط هائل قاتل؟.

خطر لي أنهم في مباحث أمن الوطن قد فكروا أنني سأهرب... ربما يكون ميسور ماضي هو الذي أبلغهم كي تكون له عندهم يد... سيقبضون عليّ... وأولئك العشرات من الجنود كل واحد منهم ذراع للإخطبوط سيقتنصونني ... وسوف يبتلعني جوف الأخطبوط... جوف كجوف الحوت لكني لست يونس... جوف أبداً مظلم... أشد ترويعا حتى من القبر... سيغلقون بابها وينهالون علي

ضربا بالهراوات واللكمات والأقدام فيغشى علي فيصطحبونني إلي المستشفى ويأتون بطبيب يتنصت علي القلب و يعد النبض و يقيس الضغط ويحقنني بالمنشطات كي أفيق ثم يعطيهم مو افقته علي مواصلة التعذيب...

كـما لو كان من عالم آخر... من مدار آخر من مدارات الفلك جاءني صوت السائق يسألني عن الهدف فاكتشفت أنني المهندس علي هاشم واحد من أكبر و أغنى مهندسي ومقاولي القاهرة و أن القاهرة مدينة مصرية في قارة أفريقيا إحدى قارات الكرة الأرضية وأن الأرض إحدى كواكب المجموعة الشمسية و أن الشمس إحدى نجوم مجرة من بلايين المجرات التي تسبح كلها في السديم لهدف ولمستقر لكن أي هدف لي أنا يا أحمق... تمنيت لو أطلب منه أن يأخذني إلي مباحث أمن الوطن... ها أنذا... اذبحوني ولكن أحسنوا الذبحة... عجلوا فمادامت قادمة قادمة : فـــالآن...

كــأنما أصابت قذيفة قلبي عندما رأيت عشرات الضباط والجنود في ميدان طلعت حرب باشا وكأنما انطلق من كهف سحيق صوت مسحوق يحذرني من الكمين فكدت أقفز من السيارة لأجري ... لأهرب... هل يقبضون عليّ الآن ... أتمالك نفسي... أتشبث بمكاني كأنني أخشى أن تخونني أطرافي... أن تتمرد علي وتنطلق علي الرغم مني هاربة كي تحمي نفسها مما ينتظرها من عذاب... .أن تنفرط أعضائي كما انفرط عقلي... تهرب مني أنا الموصوم والمطلوب... تهرب الساق إلي مكان والساق الأخرى إلي مكان آخر والذراع إلي ثالث والجمجمة في حفرة ... يتركون بقاياي لمباحث أمن الوطن فهم يريدونني أنا لا هم... لكننا علي الرغم من هواجسي نعبر الميدان في سلام.

يعيد السائق سؤاله:

- -سعادتك يا باشا ، أين تأمرني أن أذهب ؟...

لا هدف لي يا أحمق ، وليس لي حق في أن يكون لي أي هدف لكن خذني إلي ذلك الفندق الكبير ودعني فسأقود السيارة بنفسي أثناء العودة، حتى طلعت حرب لم يفعل به الإنجليز ما سيفعلونه بي في مباحث أمن الوطن غدا... صدقت يا إيفيلين ... لقد أحسست بجرح من صراخك فيّ و انتابني الغضب من قولك لكنني التمست العذر لك إعزازا للغالي وتقديراً لظرفك... لكنك كنت صائبة وكنت المخطئ... نحن أمة متخلفة لا يفصلنا عن القرود سوى درجتين... لقد عددوا الكثير من خطايا جمال عبد الناصر و آثامه الهائلة لكن أحدا لم يتطرق أبدا إلي أخطر آثامه و أفدحها... عزل الملك وطرد الإنجليز... لو لم يكن قد فعل لاستطعت اللجوء الآن إلي السفير البريطاني ألتمس منه الحماية والعون... كان صمام أمان يحمينا و يمنعنا من التنازل عن الدرجتين الباقيتين... ولو كان الملك ما يزال لذهبت إليه وللذت بقصره... لو فعلتها الآن لفتتوا رأسي بالرصاص كما فتتوا رأس ذلك الشاب - الطفل - الذي غاضب أباه المستشار فانطلق غاضبا بسيارة أبيه ومر علي القصر في جموح غضب طائش... لم يمتثل للحرس حين أمروه بالوقوف ففتتو ا برأسه بالرصاص.

لعله كان بالغضب أعمي ولعله لم يسمع... كنت أستطيع أيضا أن أذهب إلي الصحافة... إلي مصطفي بيك أمين أو محمود أبو الفتح أو أحمد حسين أو الأهرام ولم يكونوا بتاركيّ... كان يمكن لهم إسقاط الحكومة من أجلي... حتى محمد محمود وإسماعيل صدقي سقطا تحت وطأة ضغط الصحافة والناس لكننا الآن في زمن لا تسقط فيه حكومة مهما حدث... مهما حدث... نحن أمة متخلفة من الرعاع وكنا نحتاج لتهذيب الإنجليز قرنين آخرين فلماذا أخرجتهم يا جمال...

تركني السائق و هو في دهشة من أمري فمنذ توبتي لم أصرفه ... بعد خطوات يعود ليستوثق أنني لا أريد منه انتظاري... حتى في نزواتي لم أكن أصرفه إلا ليعود لي بعد زمن أحدده... أؤكد له في ضيق أنني لا أريده الليلة... لعله الآن يحسبها نزوة تطول... ثمة عروس فعلا يا أحمق... غدا تتلقاني في أحضانها... يربطون ذراعي بذراعيها وساقي بساقيها ووسطي بوسطها ثم ينهالون علي بالسياط فيستمر زفافنا الدامي يختلج اختلاجات فاجعة حتى الموت...

أواصل السير بلا هدف... بكمين آخر... ماذا أتي بي إلي هنا... إلي كوبري الجامعة... عشرات الضباط والجنود يوقفون السيارات يفتشونها ويفحصون أوراق سائقيها... يا إلهي... كل أوراقي في المكتب منذ جعلني ميسور ماضي أتخلص منها... هل أستطيع التخلص من ورطتي ... ليس ضباط مباحث أمن الوطن فقط بل الشرطة كلها حتى ضباط المرور قد شملتهم حصانة أنهم لا يُسألون عما يفعلون... هل تذكر ما حدث لابنة الدكتور محمد شعلان... حين ضربوها حتى أوشكت علي الموت... أو ذلك الأستاذ الجامعي في الاسماعيلية حين اصطدم بضابط مرور فسحلوه في الشارع... مولاي ضابط المرور حنانيك... أنا منكسر وحزين وخائف فهل يشفع لي ذلك عندك ... أم أن عليّ أن أمثل دور المتغطرس المتعالي الجبار لأخدعك بأنني واحد من سادة هذا البلد الذين لا يسري القانون عليهم بل يسيرون هم عليه ويدهسونه.

هل تذكر ضابط المرور الذي صفع عضو مجلس الشعب ليثبت للدنيا أن الحصانة غير المكتوبة-والتي لا يقرها القانون أقوى بما لا يقاس من الحصانة المكتوبة التي يفرضها القانون... أو ذلك الآخر الذي صفع ناجي ... مولاي ضابط المرور حنانيك هل تصفعني الآن؟ أم تأمرهم بإلقاء القبض علي كي أقضي الليل في التخشيبة كمتشرد... أقف في صف السيارات... علي أي

حال من الأحوال لا تقاوم... مع المقاومة تزداد الأمور سوءًا باستمرار... أم نسيت ذلك الأب الذي اصطدم بضابط المرور في دورية مرور... فأهانه الضابط فرفض الإهانة... فانهال عليه ضربا والجنود بكعوب البنادق حتى مات...

فلما مات دسوا له ولابنه قطعا من المخدرات بين ثيابهم وتحول همّ الأسرة المنكوبة من المقاضاة والاحتجاج والاعتراض إلي التوسل كي يقصروا التهمة علي الأب فقد مات... و أن يدعوهم يدفنونه... أي شيء وكل شيء يمكن أن يحدث فتمالك نفسك... ياله من وضع سيئ لو قضيت ليلتك في التخشيبة لتتوجه منها إلي مباحث أمن الوطن... ماذا يمكن أن يحدث لك في التخشيبة؟

لقد اطلعت علي قطاع منه لكنك لم تعرف الباقي... استدعت أعمالي ذات يوم أن أستعين بجلف شاذ جنسيا ... كانت خطة من أبرع خططي... ما أشد ما كانت دهشة الأصدقاء والمعاونين حين طلبت منهم ما طلبت... طباخ وسيم وشاذ... تعرضت لمئات النكات والتلميحات والتصريحات... لكنهم وجدوه أخيرا... خضع لبرنامج مكثف من التهذيب... قلت لهم أنني أعيد إخراج فيلم سيدتي الجميلة... أثناء البرنامج قبض عليه لسبب لا أذكره فأرسلنا إليه من يفرج عنه فلم يحمد لنا صنيعنا بل قال ما أذهلنا... قال لنا أن التخشيبة بالنسبة له كملاهي الليل بالنسبة لنا و أنه هناك يقضي سهراته الحمراء ... وحين لم نفهم قال أنه في التخشيبة يغتصب الأطفال أمام باقي المحتجزين وأن ذلك يمنحه نشوته الكبري.

أذكر أنني سألته يومها: ألا يصرخون فأجاب بل يصرخون لكن الضباط والجنود لا يستجيبون لهم بل يتضاحكون منهم ويصرخون بين كل آن وآخر: هل انتهيت فأقول لهم ليس بعد... وقلت له أنه سأهديه عما قريب إلي الرجل المهم فليرفع رأسنا... ولم يرفع الجلف رأسي فقط بل رفع أيضا رصيدي في

البنك ملايين وملايين حين قدمته إلي سيادته كأفضل طاه في مصر... وفي أيام انتهت جميع مشاكلي مع موظفيه وحصلت علي جميع مقاولاته...ونعمت بالأوامر المباشرة للاستيراد لصالح وزارته.. تجنب الرجل المهم بعد ذلك لقائي مباشرة لكنه في الصدف العابرة كان يعبر لي عن امتنانه بنظراته... الطاهي نفسه تحول إلي عضو رئيسي في كل زياراته للخارج.

صف السيارات لا يكاد ينتهي... تبدو بماكيناتها المزمجرة كأبقار تخور قبل الذبح... ما أدق ما يفتشون... لا أستطيع التحرك إلى الخلف ولا التقدم إلى الأمام...

ماذا سأفعل الآن... دون هوية ودون أوراق... كيف سيعاملونني... هل هذا مخطط ومدبر... لاشيء بعيدا عنهم ... يمكنهم أن يفعلوا كل شيء و أي شيء... لديهم القدرة والخبرة... ولست أمامهم سوي آلة لا تملك من أمرها شيئا... آلة تتحرك بالريموت كنترول... عليك اللعنة يا ميسور... الآن ليس سوي سيارة أمامي، خيل إلي للحظة أن دقات قلبي ارتفعت حتى ليمكن لسكان القاهرة جميعا أن يسمعوها...

تجلدت... تظاهرت بالثبات واللامبالاة... علي خلاف كل هواجسي أثبتت الشبح وجودها... كنت قد أنزلت زجاج النافذة كي أكلم ضابط المرور... كي أعتذر له عن نسيان أوراقي... فوجئت بالضابط يحملق في وجهي...

وقبل أن يقفز قلبي خارج قفصي الصدري وجدت الضابط يبتسم وهو يقول :

- علي باشا هاشم فيما أظن ...

أومأت برأسي و أنا أغتصب ابتسامة ...

و إذا به يشير إليهم بطرف يد فيوسعون لي الطريق بالتبجيل والاحترام دون أن يطلبوا مني أية أوراق،ما أغباني، إنني أوشك علي الانهيار...

مجرد حراسة قبيل السفارة... ثم لماذا لم أتذكر تليفون السيارة الذي أستطيع به الاتصال بمن أشاء وقتما أشاء... لم أكن سأحتاج حتى إلي من يحضر أوراقي لي من مكتبي... مازلت قويا وعلي أن أقاوم.

بدت السفارة الإسرائيلية مطلة علي النيل... قفزت الفكرة في رأسي فجأة... السفير الإسرائيلي يحتل - علي الأقل - ذات المكانة التي كان يحتلها السفير البريطاني قبل ذلك... ماذا لو لجأت إليه... لو اعتذرت له عن جفوتي السابقة معه... عن تجاهلي لدعواته وتباعدي عنه في أي محفل يجمعنا... لو وعدته بأن أعطيه أجمل القصور في برجي ... بلا ضمانات كما شاءوا بل وبلا ثمن... ما أجمل أن أفعلها الآن... مجرد قيامي بهذه الزيارة سوف يغير كثيرا من الأمور... بل سوف يقلب الأمور... ياله من إحراج سأسببه لهم... هل يستطيعون غدا إلقاء القبض علي واحد من أصدقاء إسرائيل... ولو فعلوها هل تسكت إسرائيل عليهم؟

منذ أكثر من عشرين عاما سمعت كثيرا عن القبض علي إخوان مسلمين وشيوعيين وناصريين و يساريين ومتطرفين وعملاء لليبيا والعراق والسودان و إيران ومعادين لإسرائيل لكنني لم أسمع قط عن القبض على مؤيد واحد لإسرائيل... لكن... هل أضمن الآن الوصول إلي السفير بسلام... ثم ماذا أقول له حين يسألني عن زيارة مفاجئة وبعد الثانية صباحا... هل أقول له الحقيقة.

أنني كرجل أعمال حقيقي لم أهتم بالسياسة قط لكنني في نفس الوقت لم أستطع أبدا أن أتصور علاقة طبيعية بيني وبينهم ... .. هل هي البغضاء الموروثة في الدم... تلك البغضاء التي تدفعني للرفض علي الفور حين أكتشف أن البضاعة المعروضة أمامي إسرائيلية وتدفعني للغثيان حين أكتشف أن الطعام المقدم إسرائيلي... أم هو ازدراء لدولة تجسد رجل

العصابات أكثر من رجل الأعمال... فهو لا يعمل بصورة طبيعية أبدا... كل أعماله مكر وغش وخداع... هل هو مظهر مصطنع من مناظر التدين يساعدني علي إبراز صورتي كرجل أعمال متدين... هل هي حسابات رجل أعمال خشي أن يفقد أسواقه في البلاد العربية إن ارتبط بها... أم أنه حذر حصيف لمن يدرك مدى هشاشة الوضع السياسي في بلادنا... و أن كل المواقف مرتبطة بحياة الرئيس أو الملك فإن مات أو قتل أمكن لكل شيء أن ينقلب علي عقبيه... وقد نشاهد غدا أو بعد غد من ينقض كل اتفاق أُبرم وساعتها ستكون سابقة التعامل مع إسرائيل ليست وصمة عار فقط و إنما مبرر لمصادرة الأموال أيضا...

عليك ألا تعاود الدوران حول السفارة... إما أن تدخل وإما أن تبتعد... إن كنت مرصودا كما تظن فما أيسر أن يفتتوا رأسك بالرصاص الآن ... وغدا تذكر مانشيتات الصحف أنهم وجدوا عبوة ناسفة في سيارتك و أنك أمير من أمراء الإرهاب... هل تدخل حقا ... .. أنت تعرف القليل عن علاقات المخابرات الأجنبية للدول العظمي بقوى البوليس للدول الضعيفة... إسرائيل دولة عظمى ونحن دولة صغيرة... ثم... ألا يمكن أن يكون كل هذا الذي يحدث ليس مرصودا منهم فقط بل موجها بالريموت كنترول... أن يدركوا حجم الضغط الذي يمكن أن يدفعك إلي السفارة فيمارسونه عليك وفي اللحظة المناسبة تماما يضربون ضربتهم.

لو كنت قد قدمت لحياتي وسبقت بأن أكون صديقا حقيقيا لهم لتولوا حمايتي... هم المستقبل الآن فكيف لم أحدس... لماذا لم أستبق الحدث أو حتى أدركه... هكذا تأتي النهايات دائما... خطأ واحد في البداية... جميع ما بعده صواب ومنطقي لكنه مبني علي الخطأ الأول... لماذا لم أفطن... الآن يمكن أن أكون رأس الذئب الطائر... وعندما يصطادونني كخروف شارد

سأكون بالنسبة للإسرائيليين دليلا علي ما يمكن أن يحدث لرجال الأعمال الذين رفضوا التعامل معهم، الذين لم يلجئوا إليهم ملتمسين الحماية والعون، وبالنسبة لنا هنا سأكون دليلا علي ما يريدون... كل ما يخطر علي البال وكل مالا يخطر.

التهم عندهم كالوظائف... تخلو الوظيفة أولا ثم يبحثون لها عمن يناسبها... عمن ترشحه مؤهلاته لها... والصحف تعرض صورة جثتي المشوهة بالرصاص غدا سوف يجدون وثيقة مكتوبة بخط يدي تكشف عن علاقات مع المتطرفين المسلمين أو حتى الأصوليين اليهود لتخريب عملية السلام... كل شيء و أي شيء يمكن أن يحدث لك هنا فابتعد...

أشعر بالإرهاق... أدور حول النيل... أين أقضي الليلة... يمكنني حجز جناح في فندق ويمكنني الذهاب إلي شقة الزمالك أو فيلا المعادي أو شاليه الهرم... تتجسد الذكريات

وتطلع أمامي كالأشباح فجأة... هل حدث ذلك في بلادي... أم في بلاد كبلادي... كانوا قد غضبوا علي واحد ربما كان مثلي... هاجموه في شاليه علي أطراف العاصمة وقتلوه رميا بالرصاص... ثم أتوا بغانية وقتلوها هي الأخرى بالرصاص ووضعوها علي السرير إلي جواره... و انفجرت الفضيحة والخزى والعار والإدانة وامتنعت الصحافة والتليفزيون عن طرح السؤال المهم:

- من الذي قتلهما ولماذا... تجنب إذن المبيت وحدك...

أقفل راجعا نحو قصري... هل عانيت يا ناجي ما أعانيه الآن... هل أحسست بنفس الرعب وذات الهواجس... أنا لا أحتمل ليلة واحدة فكيف احتملت أنت أحد عشر عاما ...من نيابة إلي نيابة ومن محكمة إلي محكمة ومن تحقيق إلي تحقيق... والقضية تؤجل... والحصار يضيق ...

كان مرح إيفيلين قد شابه كدر... بسمتها الدائمة استمرت كما لو كان وجهها قد تجمد عليها... صرخاتها الجذلة انقطعت... حتى صوتها اختلفت نبراته وغلظت نغمته ... السوبرانو الجذاب انتهي وبقيت بحة كنغمات غليظة لعزف ناى حزين...

كان ذلك في العام السابع أو الثامن لهما في مصر... كانت قد أنجبت لتوها طفلها الثاني في مصر وكانت لغتها العربية قد تحسنت كثيرا... كنت أضاحكها قائلا أنها سبقت المصريات حتى في الإنجاب... انتهزت الفرصة ذات يوم عندما نزل ناجي إلي حمام السباحة... همست لي : " ابتسم "... نظرت إليها دهشا... ظننت أني لم أسمع جيدا...

لكنها كررت : - " لا تنظر نحوي... ابتسم... واضحك أحيانا ... تصرف كما لو كنا نتحدث حديثا عاديا "... تناوبتني الظنون لكنها واصلت:

- "ناجي حساس جدا... لكنه طيب وبريء... يجب أن تساعده... إنه يتصرف كما لو كان في هيوستن... يظن أنه يكفي أن يكون بريئا كي تبرئه النيابة والرقابة والمحكمة ... إنه يتوقع كل يوم أن يأتي من يقدم له الاعتذار ويرجوه أن يعود إلي منصبه كعميد لكلية الطب "

ضحكت في غير مناسبة وهمست دون أن تحرك شفتيها : "اضحك... وقل أي شيء... ناجي ينظر نحونا" ثم واصلت وصوتها يتهدج في مرارة: "يقول أنه سيرفض دعوتهم إلي العمادة... و أنه سيعود إلي هيوستن فور انتهاء القضية وبعد أن يثبت براءته حيث سيلغون قرار منعه من السفر... إنه يسبح في بحر من الوهم... قال لي المحامي أن وضعه خطير و أنه لا يستبعد السجن... وناجي لم يخطر بباله ذلك... أبدا... ساعده علي كي يرى الواقع... قل له أنه ليس في هيوستن حيث الفساد فساد أفراد أما أجهزة الدولة

فصالحة... قل له أنه هنا... حيث الفساد فساد مجتمع و دولة "... سألتها في حيرة كيف يمكن أن أساعده بينما يتملص برقة كلما حاولت أن أفتح الموضوع معه كي يحول الحديث إلي مجرى آخر غالبا ما يكون ساخرا... و أنه يحدثني عن كل شيء إلا قضيته... كما لو كان بتجاهله الحديث عنها سيلغيها... فكيف أستطيع أن أساعده... فردت علي بحسم لا يخلو من السخرية والمرارة: "أنت مصري... تعرف المداخل والمخارج والسبل... تعرف أيضا أنه في بلادكم لا يوجد مجرم لا يمكن تبرئته كما لا يوجد بريء لا تمكن إدانته"... قلت لها أنني أحتاج إلي تفاصيل كي أستطيع المساعدة لكنه يرفض الحديث...

صمتت طويلا، انقطع الحوار، ثم همست كما لو كانت تحدث نفسها: "لقد أصيب كبرياؤه... يتصرف تصرف أسد جريح... لا يشكو أبدا... لا يبوح... لم أكن موافقة على الحضور لمصر... عندما بدأت الكوارث كان يخفيها عني... لا لأنه يخجل من صواب رأيي وخطأ رأيه في البداية عندما صدق وعودهم وأصر علي الحضور... بل لأنه كان يخجل من أن يكون أبناء وطنه بهذه الخسة وأن يكون الوطن نفسه بكل هذا الفساد والأشياء اللا معقولة".

لحظتها كان ناجي يخرج من الحمام فانقطع الحديث لكنها طلبتني في التليفون في نفس اليوم لتطلب مني التحدث إلي محاميه.

وعندما استدعيته لأبحث معه تفاصيل القضية وما يمكن عمله صارحني بأن الدائرة مغلقة... و أنه إذا لم تتم إدانة الدكتور ناجي فسيعني ذلك إدانة مسئولين كبارا منهم وزراء... لذلك تتحرك أجهزة عديدة لإدانته... لم يمنع مباحث أمن الوطن من اصطياده إلا جنسيته الأمريكية. لكنهم يعملون خلف ستار... تردد قليلا قبل أن يقول أنهم اتصلوا به هو نفسه كي

يمتنع عن مباشرة القضية، وأنه صادف مضايقات عديدة لرفضه الاستجابة لمطلبهم.

(١٠)

تلــوح مشارف قصري...

أقترب بحذرو أقطع الشوارع العرضية متلصصا مترقبا،

اختفي الوحش الكبير لكن ثمة وحش أصغر يربض علي مقربة...ترى هل هي سيارة القيادة والجنود مبثوثون الآن في أرجاء الحديقة، يا إلهي... هل يمكن أن يكونوا قد اقتحموا المكان في غيبتي... أن أجدهم الآن في الداخل، هل الخدم نائمون أم اعتقلوهم... .

بدت المسافة من مكان السيارة من مرآبها عبر الحديقة حتى باب صالة الاستقبال في القصر أبعد من المسافة بين السماء والأرض ... بدأت السير... لم يبد أن أحدا يعيرني اهتماما... جاهدت كي لا يفضحني رعبي، كي لا أسرع الخطو... كي لا أجري... صعدت السلم وفتحت الباب فلم أجدهم في الداخل ولم يتبعوني... ربما ينتظرون حتى دخولي... وربما يقصدون ما هو أكثر من الإمساك بي، أن يقتحموا سكني، أن يهينوني أمام زوجتي و أبنائي... أن يحطموا أثاثي وتحفي...

طال انتظاري ولم يحدث شيء. أخذت أفكر في الأمر بهدوء فيبدو أنني فقدت اتزاني منذ الصباح... ما هو الغريب في وجود سيارة شرطة أمام منزلي... آلاف السيارات المماثلة تملأ المدينة كالجراد، عند النواصي والمساجد والكنائس و أقسام الشرطة والوزارات والجامعات والمعاهد والمدارس والميادين والشوارع الهامة وأمام منزل أي مسئول وأحيانا في مناطق أخرى لا ينطبق عليها كل هذا... فما الغريب في وجودها أمام منزلي... ولعلها وجدت عشرات المرات قبل ذلك دون أن ألحظها...

جميع من بالبيت نائمون... الشيء الوحيد الذي يريح البال هذا اليوم... لا سؤال ولا طلب ولا استجواب ولا اعتراض ولا احتجاج ولا عدم فهم ولا طعنة غادرة في صميم القلب من حيث لا تتوقع... إلي أين تسرب أمني... لماذا لم يعد البيت بيتا ولا الزوجة زوجة ولا الأبناء أبناء ولا القلعة قلعة ولا الحصن حصنا ولا القاهرة قاهرة ولا مصر مصر ولا الوطن ملاذا آمنا ... لماذا فسد كل شيء... تري كيف تكون مشاعرهم غدا عندما يعرفون خبر القبض عليّ وبعد غد حين يعلمون بموتي... كم دمعة حقيقية ستهطل والمنديل يمتد ليجففها مخفيا الآلة الحاسبة التي يقدرون عليها نصيبهم من الميراث... لماذا حلت بالزمان اللعنة و أين ذهبت البركة... لم أكن هكذا مع أبي و أمي... أوحشتيني يا أمي... أشتاق إلى صدرك كي أبكي عليه... ليس لي صديق ولا حبيب وما أشعر به اليوم لا أجرؤ علي البوح به لأحد... و أنا محتاج إلي أي واحد في هذا العالم كي أقول له كم أنا وحيد ومرعوب وخائف... منذ موتك يا أمي لم أسمع كلمة صادقة تسعدني إلا من أجهزة الكمبيوتر والعاهرات... وما من عاهرة كذبت كما يكذب الشرفاء فادعت الحب وهي لا تحب لكنهن امتنن دائما لسخائي وكان الامتنان صادقا... فلماذا حلت اللعنة و أين ذهبت البركة ولماذا كل شيء مقزز ومرير.

ترى... مثل هذا الوقت غدا أين أكون ... .. بم يشعر الراقد علي حشية مبللة بالماء متصلة بالكهرباء؟ كيف يتنفس حينما يضعوه في زنزانة تحت الأرض يملئونها شيئا فشيئا بمياه المجاري حتى يدرك سطح الماء فمه و أنفه ، ثم يزيدون فلا يستطيع التقاط الأنفاس إلا كل شهقة بقفزة ... ثم يكهربون المياه بعد ذلك ؟

كيف تتصرف يا علي هاشم عندما يطلقون عليك الكلاب الوحشية تنهش لحمك ... ؟ كيف... ... أنت الذي يصيبك الذعر لمرأي فأر؟...

تري... كيف يكون مذاق السياط ؟!... وما كنه ذلك الإحساس الذي سوف تحسه عندما يعلقونك من ذراعيك طول الليل في حضن العروس الخشبي ... وفي الصباح يغيرون الوضع

فيعلقونك من قدميك ويربطون في يديك أنبوبة للغاز ؟. هل تذكر ما رواه لك الدكتور حمدي... كان أحد المعتقلين عنيدا... وتحت وطأة التعذيب فقد الوعي مرات عديدة

وهو يحقنه بالعقاقير المنبهة... في لحظة من لحظات إفاقته والضابط يسبه سبابا قبيحا و يمد يده بشيء ويدسه في دبره فيصرخ ألما ثم يستدير فجأة ويبصق في وجه الضابط

فيستشيط هذا غضبا ويختطف المحقن من بين يدى الدكتور حمدى و يفرغ ما به ثم يملأه من المرحاض ويحقن المعتقل به... !!!

آآآآآآآآآآآآه... ...

ماذا ستفعل عندما يجلدون ظهرك وقدميك وينهالون بالشوم علي رأسك ؟. كيف تقضي حاجتك ؟... كيف يكون ألمك وكيف تصرخ ؟...

يا سيادة اللواء حسين بركة... يا مباحث أمن الوطن... يا حكومة... قولوا لي ماتريدونه مني وسوف أفعله بحذافيره لكن أرجوكم لا داعي لهذا العذاب...

أحاول النوم... آه لو تدركك رحمة ربك فترقد رقدتك الأخيرة ولا تقوم...

يجثم علي قلبي إحساس ثقيل... وبركة الماء المستقرة الساكنة سقط فيها الحجر فحرك كل ما في الأعماق من قاذورات وعفن... ما قيمة أي شيء وما قيمة كل شيء ... ..

هل هو انتقام منك يا رب... أخفيت ما فعلت وسترتني لكنك تبتليني بما لم أفعل ؟!...

أمد يدي إلي زجاجة الماء المعدني... لا أشرب سواه والعصائر فكيف أشرب غدا وماذا ؟هل تشرب أنت أيضا بول حمار مصاب بالتهاب كبدي؟..

تناول المهديء الذي وصفه لك ناجي... ذلك المهدئ الذي طالما تناولته قبيل عملياتك وصفقاتك فمنحك الهدوء وأغرق خصومك فى بحرالجزع من فرط اطمئنانك و أنت تمارس عملياتك الكبري بقلب ميت...

لا تنس غدا قبل ذهابك أن تأمر بملء البار بالخمور فأغلب الظن أنهم سيفتشونه وقد تكون لك فيها شفاعة ودليل براءة...

لا تنس أيضا أن تأخذ معك مصحفا تلتمس منه الأمان والبركة... لكن... من الذي روي لي قصة تمزيق المصحف هناك و إلقائه أرضا ووطئه بالأحذية؟.

لماذا تحولت إلي مخزن للقمامة والذكريات أيها الرأس المصمت وكيف احتفظت داخلك بكل هذه الأحداث كل هذه السنين دون أن تذكرها ولو لمرة وكيف الآن تطفو هذه الذكريات كما لو كنت لم تعرف طيلة حياتك سواها...

من الذي قال لك أنه اعتقل في عهد جمال عبد الناصر كما اعتقل في هذا العهد فاكتشف أن التعذيب في العهد الأول رغم بشاعته لا يعدو مداعبات إذا قيس بما يحدث في هذا العهد... أنهم في المرة الأولى علقوه لمدة ساعتين فعاني ألما لا يطاق واعتبر ذلك قمة الوحشية لكنهم عندما اعتقلوه في المرة الثانية علقوه يومين كاملين ...

من كان ذاك... لا أذكر حتى اسمه... ابتعدت عنه علي الفور... كنت أبتعد دائما عن كل من يمكن أن يكون مصدر خطر...

مباحث أمن الوطن... كالموت... لا يفلت منه أحد ولا يكاد يذكره أحد... ما منكم إلا واردها... كيف نسيت كل هذه الأحداث... ألقيتها خلف ظهري... كما لو كانت تحدث لجنس آخر ليس لي به أدني علاقة.

ينفجر الرعب أقسى من رعب الموت حين أكتشف أنني أنا الآخر أوشك أن أكون ضحية من ضحاياها...

يا رب...

قالها أحدهم ذات يوم هناك فأجابه الجلاد أن الله غير موجود هنا ، أنه لا يزور السجن ، ثم أردف ساخرا : ولو أتي لاعتقلناه معك... يا إلهي ... رحمتك وعفوك... ليت ملك الموت يد ركني... يا ليت... يا ليت يا ليت يا ليت يا ليت...

كم دفعت كي تعطي لنفسك في المجتمع هذه الصورة الوقورة ... رجل الأعمال الشريف النزيه... رجل البر والتقوى... النفس المطمئنة... كم إعلانا وكم لقاءً وكم مجاملة، وكم هدية وكم رشوة... بنيانك الهائل يتقوض... وغدا بعد أن ينشروا ما سينشرونه عنك ستكون وصمة عار يبرأ منها أقرب الأقربين...

كفّ يا مستودع القمامة عن إشعال النار بي...

تري ماذا يفعل اللواء حسين بركة الآن... وهل يدرك أنه بقصاصته الرثة قلب حياتي ولست أدري متى تعود للاعتدال إن عادت... متى يمنحني دواؤك الهدوء يا ناجي... ترى هل كنت تتناوله أنت أيضا؟ ... وهل كان هو سبب تلك النظرة الوادعة علي محياك... أعطيت قرصا منه لإيفيلين ذات ليلة فشكرتني في اليوم التالي بحرارة واعتذرت عن إهانتها لي... كانت المحكمة قد احتجزت ناجي محبوسا - احتياطيا - علي ذمة القضية خمسة عشر يوما... كان القرار مفاجئا تماما وغير متوقع... فبعد أحد عشر عاما من التحقيقات لم يكن من المتوقع أن يهرب... هاتفت المحامي فأبدي امتعاضه

ودهشته... قال أنه سيحاول التوسط لنقله إلي مستشفي السجن... ذهبت إلي إيفيلين كي أواسيها...

كانت تجلس علي ديوان في الاستقبال متكورة على نفسها... لم أكن أرى وجهها ولم أعرف ما إذا كانت تبكي لأن وجهها كان مختفيا بين ركبتيها و لم تكن تتكلم... بدت بائسة يائسة... ورحت أردد كلمات لا معني لها بينما لا أرى منها سوي هالة من الشعر الأحمر والداكن بلون النار والدخان... دون أن تتحرك... ودون أن يبدو عليها حتى أنها تتكلم... صك صوتها مسمعي خشنا غريبا كما لو كان يصدر عن شخص آخر:

- لماذا غضبتم عندما بال ذلك الإسرائيلي علي المحكمة؟! .

انطلق منها صوت وحشي لم أعرف إن كان ضحكا أم بكاءً ثم أردفت قائلة بصوت معدني لا أثر لأي نوع من الأحاسيس فيه :

- لقد حدثت الواقعة أمامي ، كنت أحضر يومها قضية لناجي ، واتهمت الرجل يومها بالهمجية والتخلف ، كم كنت مخطئة .

خيم صمت مرير لم أدر فيه ما يجب أن أقول... احترت... هل أعتذر لها نيابة عن الوطن والشعب والحكومة والنظام ... أخذت أغمغم بكلمات لا معني لها... شيطان السخرية يعبث بي علي نغمات تهدر داخلي " المصريين أهمه ... حيوية وعزم وهمة " ... لا أذكر باقي اللحن لكنه كان ينتهي بكلمة " متحضرين "... تجسدت الأغنية أمامي حيوانا هزيلا يثير الضحك بذيله الضخم... وددت أن أقول لها أن ما حدث لناجي سوء حظ... أن أزعم لها أن ذلك ليس هو القاعدة في بلادنا... لكنها صرخت فجأة دون أن ترفع رأسها:

"أنتم شعب يستحق أن يبول عليه العالم "...

زرت ناجي في السجن فهالني ما رأيت... هالني أكثر أنه قابلني بذات الابتسامة والهدوء والوداعة... كأنه هو المنتصر... عاتبته لأنه رفض حتى أن يكتب التماساً بأنه مريض كي ينتقل إلي المستشفى.

تجاهل سؤالي ... كما لو كان يعيش في الجنة أخذ يحدثني - جادا - عن سوء الأوضاع في أمريكا... وكما لو كانت جلستنا علي شاطئ النيل في مطعم الجريل في سميراميس أو علي شاطئ البحر في الغردقة ... رفع يده إلي أعلي وحك إصبعا بإصبع فانطلقت طرقعة امتزجت بصوته وهو يقول : Freeze ... ونظرت إليه دهشا فواصل لا يعنيه اندهاشي:

- ذات مرة و أنا هناك انشغلت الصحافة والإعلام كله بقضية هامة كان أحد اليابانيين يبحث عن عنوان ما فضل طريقه ليدخل في فناء بيت أمريكي وبدأ الياباني يسأل لكن الأمريكي صرخ فيه : Freeze ... ولم يكن الياباني يعرف أن معني الكلمة في الأمريكية الدارجة هو: قف مكانك... فواصل السير تجاه الأمريكي ملوحا بورقة فيها العنوان الذي يسأل عنه لكن الأمريكي أطلق عليه الرصاص فقتله... و انشغل المجتمع الأمريكي بالقضية حتى حكم القضاء ببراءة القاتل لأن واجب أي أجنبي أن يعرف لغة الشارع في أمريكا قبل أن تطأها قدماه.

تجملت بالصبر حتى انتهي ثم رحت أحدثه في أمره... في مشكلته... في الكارثة التي تخيم عليه، هرب من كل محاولة للدخول في التفاصيل... كلما سألته أجابني ضاحكا: لا داعي لهذا الموضوع يا حضرة الصول... فلما أبديت دهشتي مما يقول فسر لي الأمر قائلا أن أكبر الشخصيات قيمة وأعظمها

مهابة في عالم السجن هو حضرة الصول... أنه أكبر من الملك وأهم من الرئيس، و لأنني عزيز جدا عليه فقد قرر أن يمنحني هذا اللقب... أكبر لقب في العالم.

بدا له حزني فقرر هو أن يواسيني :

- " هل تعرف يا علي... طوال الأعوام الماضية... أحد عشر عاما... أتساءل هل الله ظالم... لن أقول أنني لم أجد الإجابة طول الأعوام الماضية... لقد ظننت أنني وجدتها حين صرخت داخل نفسي تحت وطأة الألم و انعدام العدل : نعم... لكنني لم أجد الإجابة الصحيحة إلا هنا في السجن... إجابة فسرت لي كيف أن ما يصيبني الآن نعمة... لقد عشت في أمريكا عشرين عاما لم أشعر فيها يوما بحاجتي إلي الله... كل شيء مخطط... محسوب... أبذل الجهد فأجد النتيجة... الضمان الاجتماعي والتأمينات والمستشفيات والمدارس... أعرف ماذا سيحدث غدا وبعد عام وبعد عشرة أعوام... حتى تفاصيل موتي وجنازتي كنت أستطيع أن أرتبها كما أشاء... لم أشعر يوما برغبتي لأن أهتف : يا رب... أو أن ألتمس منه العون... فهل كنت - يا علي - تظن أن مثلي كان يمكن أن يحس بحاجته إلي الله لو لم يمر بمثل هذا الوضع؟!... وهل تعتقد حقا أن أمرا يدفعني للقرب من الله فيه شر؟.

رغم صلابتي اغرورقت عيناي بالدموع فقال وهو يربت علي كتفي:

- " لا تقلق علي... لشد ما أشعر بالوئام والسكينة"...

خرجت من زيارته في السجن إلي المحامي... أكد لي أنهم سيفرجون عنه بعد انتهاء الأيام الخمسة عشر ... فقرار الحبس غير منطقي وسوف يطعن فيه... لكنهم جددوا حبسه خمسة عشر يوما أخرى... صرخت في المحامي:

- تصرف... أطلب الإفراج عنه بأضخم كفالة في تاريخ القضاء وسوف أدفع... لكنهم جددوا حبسه...

قلت للمحامي كيف يحدث هذا فأخذ يعزيني بأنهم لا يستطيعون حبسه علي ذمة القضية أكثر من أربعة أشهر وهم مضطرون بعدها إما للحكم عليه وإما للإفراج عنه و تأجيل القضية ... غير أن تقديمه للمحاكمة وقد سبق حبسه احتياطيا يزيد وضعه سوءًا... ثم قال في مرارة : " قلت لك من البداية أن القضية مغلقة "... ثم واصل في غموض : " احمدوا الله أنهم لم يحيلوه إلي محكمة عسكرية.!!"

يعـزّ النوم... أنهض من فراشي... أتناول قرصا آخر من المهدئ... هل تخشى أن يصيبك بالدوار غدا... ابلع القرص فقد يكون الدوار في الغد من نعم الله عليك...

بعد ثلاثة شهور ونصف في السجن كتب ناجي رسالته الأولي والأخيرة والوحيدة لي... وضعتها في الخزانة بعد أن مزقت نياط قلبي... أشعر بالشوق إليه فأهرع إلي الخزانة... أخرج الرسالة... أقبلها و أقرأها بصوت عال و أنا أبكي :

عزيزي حضرة الصول علي هاشم (رجل أعمال سابقا)...

تحيتي وسلامي وتمنياتي .

والله تخطر في بالي يوميا... يوميا... و أريد أن أكتب لك باستمرار... ولكن... مشغول...

بائع عرقسوس في السجن (مسجون معنا) كل يوم مرتين... في جردل يستخدمه للاستحمام ولغسيل ملابسه ولتنظيف الزنزانة وللبول - فقط - وللشرب... مرة صباحا ومرة بعد الظهر... يصرخ... اروي ريقك يا عطشان... كيس بلاستك فارغ بجواره... يبدأ بسيجارة وينتهي بعدة سجائر في الكيس... الكوب بسيجارة كليوباترا... هل هو عرقسوس... أو... بول حمار مصاب بالتهاب كبدي A الله أعلم... المهم أنه يعمله... ويبيعه والناس تشرب وتتكرع .

في الصباح جري سريع... ولا الديزل الفرنساوي علي دورة المياة... الذي يشرف علي تنظيم الدخول فيها... البرعي وهو أقوي شخصية في العنبر... لأسباب يسهل معرفتها لسهولتها... و يا ويله الذي لا يدفع السيجارة الكليوباترا ... ندلق جرادل البول ونغسلها... تتبدل مع جرادل الشرب كثيرا!

أشرف و أصدق إنسان رأيته في حياتي هنا... مكتوب بحروف ضخمة بالوشم بطول ذراعه : الاسم : صبحي طيشة و المهنة : حرامي... ظننت أحد أعدائه أو إدارة السجن هي التي فعلت به ذلك لكنه قال لي أنه هو الذي فعلها... سألته لماذا؟ فأجابني أنها مهنته التي لا يخجل منها..

ريشة بشلة نشال متخصص في العمل في موسم الحج ويفخر بأنه سرق واحدا يصلي في الروضة الشريفة.

ثلاثة مستشارين... زملائي في السجن... جنون عظمة... يكرههم الجميع ... لم يقتنعوا بعد أنهم زملاء خيشة بشلة وصبحي طيشة ومرؤوسين للبرعي...

قاض أيضا ... زميل... صاحب قضية بوسي لامارتين... عاقل... في الإيراد (الإيراد هو غرفة استقبال المساجين الجدد) نسي تماما أنه قاض ... فهم أنه هنا ليس سوى سجين... وهذا أراحه... وجعله يعيش زميلا محترما لزملاء محترمين..(لا أسخر)...

رئيس مجلس مدينة... مليونير... صنيعة وزير شهير... أعطاه ٥٠٠ فدان بدون حق وبدون ثمن... ليس وحده... لواءات... محافظين... وزراء... وغيرهم... و أيضا لنفسه...غضبوا على الوزير فدخل هو السجن... واحتفظ الجميع بالأرض إلا هو... منذ عامين... جن... يتخيل أنه فارق حياته الأرضية عاما والتحق بالملأ الأعلى... ويحكي لنا ما رآه هناك .

عبودة العكر... مشاكس ... ... زبون دائم التردد علي السجن... يخضع للتأديب كثيرا فيجلدونه علي قدميه وظهره... كتب بالوشم علي قدميه : اضرب يا (...) بين القوسين، كلمة بذيئة لا أستطيع كتابتها رغم أنها تتردد هنا كثيرا... وكتب بالوشم أيضا علي ظهره : الفقيد... لا يحكي لنا أبدا كيف يضربونه رغم الآثار التي نراها و الدم على ملابسه... (يخجل.؟)..

من حوالي شهرين قابلت هنا شخصا هنا اسمه " علي حبي "... تأبيدة... كان حارس مخزن المخدرات في الإسكندرية... معه المفتاح... قال لي كنت أذهب... افتح ياسمسم... سمسم يفتح... أحمل و أبيع... سرق ثلاثة طن ونصف مخدرات من الحكومة... وباعها لحسابه وحسابهم!!!... سألته لماذا لم يدخلوا السجن معه فأجاب : ومن يقوم بالبيع؟!!!...

سمعت صوت قرآن جميل جدا من زنزانة مواجهة... سألت عليه... زنزانة الدعارة... مقرئ... التهمة دعارة (طفل)... محجوز للبرعي... ويجالسه القاضي ليستمتع بتلاوته...

يا أفندي... إيه ياولاااد الـ...... يا أفندي... ياغفر(خفر)... بالليل... يا فندي ياغفر... ويجيء الرد... نام يابن الـ (...) يابن الـ(...) يا فندي ياغفر...

واحد بيموت يا فندي... نام ... يابن الـ(...).. الراجل مات يا فندي... مات يا حكومة... مات يا حكومة... وفي الصباح شيء ما ملفوف في بطانية... إلي الباب الخلفي...

(سيادة العميد... (ليس عميد كلية الطب !!... عميد بوليس)... زميل لنا في العنبر... كان قائدا للعنبر... ونقل منه إلي المطار... أدمن الهيروين حتى بلغ استهلاكه اليومي أربعة آلاف جنيه... بدأ يستورد الهيروين لحسابه ويبيع ويشم... الكيلو في بانجكوك بألفين وخمسمائة دولار وهنا بربع مليون جنيه... كان يرسل تجار الشنطة ويستقبلهم علي الطائرة... لا يفتشه أحد... لم يقبضوا عليه في المطار ولا بسبب التهريب... تاجر شنطة... أحضر له الكيلو المتفق عليه و أحضر خمسة كيلوجرامات أخرى لحسابه... خرج بها على حسه... رفض أن يعطيه حقه فيها... طمع فيه... قتله... مزقه إلي أجزاء صغيرة... وهو يلقي بآخر جزء في مصرف قبضوا عليه... تأبيده... في نفس العنبر الذي كان قائدا له . .

لم أر البق منذ حوالي أربعين أو خمسين عاما... رأيته... وسبحان الله... لا أعرف كيف يتحرك ليلا... ويتغذى ويتمتع... و يعود بعد زقزقة العصافير إلى أوكاره... يهضم ويتكاثر ويستمتع... ليعود في المساء... كيف ؟!! كيف يقوم بهذه الرحلة ويعود إلي جحره ولا يضل ؟ أما الفئران فعالم آخر... صنع البرعي مصيدة... يستمتعون كثيرا بتعذيب الفأر والانتقام منه قبل أن يقتلوه...

يتركونه جائعا أياما... يحرقونه بالسجائر المشتعلة فيصرخ بصوت شبه آدمي ... يوصلون المصيدة بالكهرباء... وفي النهاية ... إذا لم يمت بعد كل ذلك يغرقونه في جردل البول أو يسكبون عليه الجازويحرقونه...

النمل دولة أخري... لدرجة أني فكرت في قصة بعنوان إعدام نملة عن نملة سرقت قطعة (حبة) سكر... وحبستها احتياطيا في كوب زجاجي وجددت حبسها احتياطيا يوم في يوم... وحاكمتها... والحكم... الإعدام شنقا... المشكلة... لم أجد الحبل الذي أضعه حول عنقها... وبمعادلة حسابية... وجدت أن وزنها لا يكفي لقصم رقبتها... فبدلا من شنقا... كان التنفيذ بشبشب... أخضر اللون... وبعد تنفيذ الحكم جاء تقرير الطبيب الشرعي... أن القطعة البيضاء المحرزة من فم النملة... لم تكن من السكر...كانت ملح... والنملة كانت تتوحم علي حاجة مملحة (طرشي).

المهم فكرت في فيلم صامت كل مشاهده من أول ضبط المتهم والمرافعة وجلسات الحكم والجلسات كلها صامتة... المشهد الأخير للمتهم يحطم قفص الاتهام... ويصرخ... براءة...

ب ا ا ر ا ا آ آ آ آ آ آ آ ه ه ه .

فكرت فعلا فيه وحضرت المشاهد والموسيقي وزوايا التصوير.

المحكوم عليهم بالإعدام... يلبسون ملابس حمراء... معزولون عنا... بجوار عنبر السياسيين وهم أيضا معزولون عنا ... البرعي يقول لي : احمد ربنا أنك غير سياسي...

يتركون المحكوم عليهم بالإعدام أربع أو خمس سنوات بعد التصديق النهائي علي الحكم... كل يوم يتوقعون التنفيذ الساعة ستة صباحا... أي حركة تصيبهم بالفزع في ذلك الوقت ... يستمتع البرعي أحيانا بإثارة رعبهم ... أمس... مات سياسي... البرعي يقول : ألم أقل لك احمد ربنا... سألت عن

عمره ... قالوا "٢٣" سنة ... سألت عن السبب في موته ... قالوا : شيخوخة... ثم انفجروا ضاحكين...

اليوم طبخ لي عبد العزيز ملوخية ناشفة... هو أكد لي أنها ملوخية وعندما ذقتها تأكدت أنها لا تنتمي إلي الملوخية في شيء فأكلت جبنة قديمة وعيش... ومياه كثيرة... كثيرة... كثيرة فشبعت.

كل يوم أقول لنفسى حضرة الصول علي هاشم (رجل الأعمال سابقا) يبعث لك عشوة من عند سميراميس أو ميناهاوس وخرطوشة L&M أم يفاجئك بكيلو كباب من عند أبو شقرة وكوزين بيريل... و أفيق... لآكل جبنة قديمة وعيش وزيتون... ثم أشرب... مياه... كثيرة... كثيرة... كثيرة... وأشبع ... و أقول منك لله يا حضرة الصول (رجل أعمال سابقا)...

عرفت يا سيدي أنا مشغول ازاي...

سلامي وتحياتي للأسرة ودعائكم لله القادر علي أن نلتقي إن شاء الله .

مع تحيات السجين : نـــاجـــي

(١١)

لـــم أكن أعرف هل أبكيه أم أبكي نفسي... فقد نمت... أو على الأحرى مت... لا أحلام ولا كوابيس ولا إحساس بشعور... نوم ثقيل منهك لا يريح جسدا ولا يذهب تعباً...

مع حمام الصباح خطر لي أنهم اختاروا يوم الخميس لاستدعائي لأنه والجمعة ونصف السبت لا يوجد في العاصمة مسئولون يمكن الاستنجاد بهم... فالجميع في فايد أو شرم الشيخ أو البحر الأحمر أو الساحل الشمالي... علي الأقل... يمكن لمن يشاء الاعتذار أن يعتذر بغيابه... وبرغم ذلك امتلأت بنشوة غريبة... نشوة كنشوة التطهر من إثم طال... فالآن... الآن أدرك كم كان كل شيء في حياتي مزيفا... كاذبا... خادعا... وبلا قيمة... .أعيد قراءة الورقة خلسة :

"المهندس علي هاشم، مطلوب لمقابلة اللواء حسين بركة
مباحث أمن الوطن، صباح باكر الخميس"

يقدم لي طعام الإفطار فأسرف فيه... لم تصح زوجتي من النوم والأبناء لا أعرف أين راحوا...

بعد وصول خطاب ناجي إلي مع محاميه رتبت أن تصله وجبات ثلاث كل يوم... لكن إيفيلين اتصلت بي شاكرة راجية أن أكف عن ذلك لأنه يرفض أي طعام من الخارج وأنها لم تكن لتقصر في ذلك... وعندما سألتها بدهشة لماذا يرفض أجابت بيأس: " لقد فقد عقله... ربما يشعر أن ضمير العالم سيئن تحت وطأة ما يحدث له... و أن ذلك سيجعلهم يذهبون إليه نادمين معتذرين يتوسلون إليه أن يعود إلي العمادة فيرفض "...

قال لي المحامي بعد ذلك أنه طلب منه أن يشكرني و أن يخبرني أن طعام السجن أشهى ... ..

يدق الهاتف فأنتفض من الفزع، السكرتير يذكرني بمواعيد اليوم...

أتميز غضبا فالخسيس يعرف إلي أين أذهب لكنه يتغابي نكاية بي... كدت أنفجر فيه لكنني تذكرت ما ينتظرني بعد قليل فأحجمت لكنه لم يتورع عن نكأ الجرح الفاغر فسألني متى أعود؟.

سيادة اللواء حسين بركة أعلم بذلك مني...

و أنا مابين الإخفاء والبوح حائر.. ليس معقولا أن أذهب دون أن أخطره فالله وحده يعلم إن كنت أعود أم لا أعود.. وفى نفس الوقت فكم هو صعب على نفسى أن أبدو أمامه مرعوباً وخائفاً.. لم أقل لأحد آخر.. ليس ثمة مناص من إعطائه تعليماتى الأخيرة.. طلبت منه الحضور و إحضار أوراقى التى نسيتها منذ الأمس.. عندما حضر ألقيت إليه تعليماتى فى إيجاز شديد.. كذبت.. ألقيت عليه كلاما غامضا لا يفهم منه شئ ويمكننى بعد ذلك تفسيره كما أشاء.. قلت له أن ثمة مساومة هائلة قد يترتب عليها ما لا نتوقع.. صرفته قبل أن يفكر فى توجيه أى سؤال.

كم من النقود آخذ معي ؟ وهل يتعاملون هناك بالكريديت كارد؟!.

يا إيفيلين ... ناجي أخي... و أنا مسئول عن نفقات البيت والمحامين حتى يعود... ورفضت شاكرة : " من حسن حظه أنهم حظروا عليه التصرف في ممتلكاته وجمدوا رصيده... فلقد دفعه ذلك للاستمرار في العمل في العيادة... كان هذا يشغله... ينسيه بل ويسعده كثيرا... لو لم يعمل ناجي لمات ".

يجب أن أصرف السائق فليس مناسبا أن يعرف إلي أين أذهب... تساءلت إن كان من الحكمة أن أذهب بإحدى سياراتي... أن يراها البعض هناك بحماقة الصدفة فينكشف السر...

لكن... علي أية حال فالسيارة دليل مهما ضعف علي أنني كنت هناك... يمكن أن أنتهي في الداخل أو أن أذوب في حمض مركز... من يفعل ذلك لن يعييه إخفاء سيارة... لكنني برغم ذلك توكلت علي الله وأخذت السيارة...

إن أنجيتني منهم يا رب سأعتمر علي الفور و أتوب... التوبة كما يجب أن تكون التوبة لا تلك التوبة المغشوشة التى خدعت الآخرين وخدعت نفسى بأنها توبة.. اليوم بالنسبة لي أفضل كثيرا من الأمس... قرب المواجهة قضى علي بشاعة الانتظار...

اقتربت من المبني... أنيق مهيب وأصغر مما توقعت ، ليس في حجم مجمع التحرير ولا وزارة الداخلية مثلا... طمأنني أن الحديقة صغيرة بحيث لا تحتمل إلا عددا محدوداً من الجثث يدفن فيها ولعلها الآن اكتظت... لم أجد مشكلة في العثور علي مكان لانتظار سيارتي... يبدو أن أحدا لا يشاء الانتظار في هذا الجوار.

المقابلة رقيقة بشكل يثير القلق... غير متوقع...

توقعت جنديا من الأمن المركزي يطلق الرصاص علي إن اختلجت الكلمات علي شفتي ثانيتين... لكن الجنود يستقبلونني عند الباب الرئيسي بحزم يقظ... ليسوا كجنود الأمن المركزي ولا المرور... رغم مظهري لم يفقدوا حرصهم... تقدم مني أحدهم لكنني لاحظت اثنين من زملائه خلفه و أيديهما علي زناد أسلحتهم الآلية... ألممت في لمحة خاطفة بآخرين في أبراج عدة يوجهون أسلحتهم نحوي... تري : لو حدث خطأ... لو بحماقة الصدفة انفجر إطار سيارة بالجوار كم رصاصة تخترق جسدي... تمزقه... والجندي في مكانه

وزملاؤه يغطونه ينادي من يصطحبني إلي مكتب جانبي... الناس هنا كأنهم بشر... كيف ينبثق من هذه الأشكال البشرية كل هذا الرعب ... كل هذا الألم... وكيف تسني لهم بملامحهم الإنسانية تلك أن يرتكبوا كل الأشياء المروعة التي لا تفتأ تخطر على بالي ... تتهاطل كالحمم والشهب علي بالي... هاهم أولئك يتحدثون ويسمعون ويجيبون ويتصلون بالاستقبال فيحضر من يصطحبني إلي مبنى فرعي حيث أجد يونيفورم أنيقاً للعاملين وكمبيوتر في الاستقبال وموظف يطلب بطاقة الهوية بأدب... هاهم يجردونني من أول شيء... الآن سحبوا بطاقة الهوية وعما قليل يسحبون الهوية نفسها... قادني موظف آخر عبر الحديقة للانتظار في صالة استقبال معدة... الحديقة بين الاستقبال الخارجي والمبنى الداخلي حيث يوجد استقبال آخر... مقاعد وثيرة وديكور فخم يليق بذوات النجوم الخمس... الهواء مكيف وثمة موسيقي خافتة تنساب ولوحات معلقة في ذوق رفيع علي الجدران... وثمة جواد ذو أجنحة يحلق نحو السماء، وتلك الصورة الشهيرة لنصف دمعة فى عينى طفل... نصف دمعة لا تنسكب ولا تجف.

تقدم النادل الأنيق بأدب يقدم لي القهوة دون أن أطلب أو أستشار... مع الرشفة الأولي ذعرت... قهوة سادة... نفس ما أشرب بل وربما كان البن وما يختلط به من نفس المكان الذى يشتريه منه مكتبي وبيتي... بدأت اللعبة إذن... وهاهم أولاء يمدون أعينهم الخرافية داخلي... افهم أننا نعرف تماما عاداتك... حتى ما تشرب وما تأكل ... لدينا من الأجهزة ما يصور حتى ملابسك الداخلية بوضوح يجعلنا نقرأ الحروف الدقيقة علي بطاقة المصنع الذي أنتجها... أتأمل الذوق الرفيع الذي شيد به المكان... لا يشبه الباستيل الذي زرته كما لا يشبه ما انطبع في خيالي عنه.

كل شيء في مكانه... لا ذرة تراب ولا ذبابة ... يخيل إلي أنه لو تحرك مقعد من مكانه لأطلقوا عليه الرصاص... ترى ماذا سيحدث الآن؟ هل تميد الأرض تحتي لتبتلعني؟ أم ينشق الجدار لأجدني في مواجهة اللواء حسين بركة؟ أم يهب علي إعصار أظل أدور في غيبوبة دوامته حتى الموت... وأنا غارق في التأمل راح انبهاري بالمكان يتضاءل... كل شيء فخم ووثير... أجل... لكنه في نفس الوقت صارم ووحشي... ناعم كحد خنجر مرهف... مستقيم كامل بلا خطأ ولا اعوجاج... صديق مستشار قال لي ذات مرة أنه عندما تعرض عليه قضية كاملة الأركان يدرك علي الفور أنها ملفقة فالخطأ صفة في صميم البشرية... ثمة شيء هنا ملفق...غير بشري... كأن المكان موجود في كوكب آخر... كأنه صورة مرسومة و كأن من فيه مجموعة مبرمجة من أجهزة الإنسان الآلي... هي التي تقوم هنا بعمل كل شيء وتلك الابتسامة المرعبة لا تفارقها ... دعوا الشفاه تنفرج حتى أري أنيابا من الفولاذ خلفها أو اكشفوا عن أقدامكم كي أري الحافر المشقوق... تلك الوداعة علي الوجوه ضد طبيعة الأمور كأن تري الصلب يغلي تحت حرارة الشمس أو الماء يتجمد عند درجة الغليان... أما جمال المكان فجليل ميت ساكن كجمال الموت... لقد طفت بالعالم وشاهدت من الجمال ألوانا لكنني لم أشهد قط مثل قسوة ذلك الجمال الجليدي...

كان أحد أصدقائي من المستشارين القضاة يضحك في جذل وهو يقول لي في فخر:

احتاروا معي... فهم عندما يحيلون إلي قضية كاملة الأركان يستفزونني علي الفور لتمزيق أدلة الاتهام فيها تمزيقا كي أدرك كيف لفقوا التهم لأحكم بالبراءة... فإذا قدموا قضية غير كاملة الأركان مزقتها - إذا ما مسني الشك -

لأنها غير كاملة الأركان... مسكين... لفقوا له التهم وشهروا به فانزوى فى بيته لا يزور ولا يزار...

ترى هل يسفر لقاء اليوم عن موتي؟ أم يسفر عن قضية؟ ترى هل يحيلونني إلي القضاء العادي أم يتخلصون من مثل ما فعله بهم صديقي المستشار بإحالتي إلي القضاء العسكري...

لست عسكريا ولم أتورط في أعمال مقاولات مع أي جهة عسكرية لكن ذلك لا يشكل أي ضمان لي فكل شيء رهن بمباحث أمن الوطن وبالكيفية المجهولة التي تتحرك بها وتدبج التهم... بالتهمة الشاغرة... بدورات كدورة الروليت في لعب القمار... مباحث أمن الوطن كالمسدس في تلك اللعبة المرعبة المنتشرة في جنوب شرق آسيا ... حيث لا تملأ كل الأماكن في خزانة المسدس بالرصاص ... يديرون الخزانة كيفما اتفق ثم يبدأ إطلاق النيران علي الموجودين بالترتيب حيث لا يفوق عبث الهلاك سوي عبث النجاة...

لماذا لم ينبهني سكرتيري بالأمس كي أنشر صفحة إعلان تجديدا بالمبايعة بأي مناسبة أو بدون مناسبة... كم كان يمكن أن تفيدني اليوم... لماذا لم أفطن أنا فأقدم إلي الحزب تبرعا بمليون جنيه... بعشرة ملايين... بأي شيء أفتدي به نفسي... آه... لو أن ذلك الزمان القديم يعود حين كان يمكن للمرء أن يفتدي بالمال نفسه... لكن ذلك الصديق كان يقول بالأمس أن ذلك الزمن لم ينته بعد... وعبدالله قال أن تعب كثيرا حتى وجد من يفتح له الأبواب الموصدة كي يبعد ابنه عن مستشفي السجن... أين يوجد من يملك تلك المفاتيح السرية أين... إنه موجود ولا ريب لكن أين وكيف يمكنني الوصول إليه؟... ميسور قال أنني أحتاج لعشرة ملايين في سبيل الهرب... لماذا لم أو افق... بل لماذا لم أتوسل إليه أن يو افق وينجز الأمر... أدفع لمن ينقذني ما يشاء... ربع مالي... نصف مالي... مالي كله.

يوم الزلزال عندما دخل السكرتير مع الهزات الأولي ليحذرني نهرته... قلت له أنني أنا الذي شيدت المبني وقد راعيت فيـ... لم أكمل الكلمة فقد اشتدت الهزات فوجدتني أسبقه مهرولا علي السلم هارباً ووجدته يزيحني ويسبقني... وما فكرت في مال ولا بنين ولكن بإنقاذ نفسي... فمع رجرجة الكون... عندما أوشك كل شيء أن يعود إلي هيئته الأولى... إلي تراب... لم أفكر إلا في نفسي فقط... ولو عاريا...

أتأمل الصور المعلقة علي الجدار... لماذا يبدو الجواد المعلق المنطلق نحو السماء مكبلا ولماذا تعلقت في مآقيه دمعة... لماذا يبدو في قفزته ممسوخا كأنما حكم عليه أن يظل معلقا لا يصعد إلي السماء ولا يهبط إلي الأرض... أعيد النظر إليه... يشلني الرعب عندما أري عينا من عينيه تتحرك... تومئ وتومض... أشمل المكان كله بعيني لكن لا يوجد أحد سواي... هل وضعوا كاميرا تليفزيونية مكان عينه... أخرج منديلا أجفف به بصرًا غـام... لكن الغيم لم يكن علي عيني بل إن صورة الحصان ذاتها تتلاشى فعلا... تهت الألوان حتى تختفي وتتشكل صورة أخري... أدقق النظر... هل وصلت بي المخاوف والهواجس للهلوسة... لكن الصورة القديمة تلاشت فعلا وثمة صورة جديدة لخيوط عنكبوت هائلة تطبق علي حشرة...

أقلب البصر... مازالت الجدران جدرانا ومازال الأثاث لم يتغير والصور الأخرى كما هي... أعاود النظر... التدقيق... ... أفتح عيني وأغمضهما ثم أعاود فتحهما... لكن... هل كان هنا صورة جواد فعلا... ألا يمكن أن يكون الأمر قد التبس علي و أن هذه الصورة موجودة منذ دخلت ... .. تبدو خيوط العنكبوت لامعة كخيوط من الصلب متقاطعة مع خيوط من فضة... ويبدو العنكبوت نفسه متربعا في أعلي الصورة سيدا وحشا مهابا والخيوط أدواته

وخدمه... هذه الخيوط خيوط حقيقية... ليست رسما ولا وهماً ولا خيالاً... عما قليل ستمتد عبر المكان كي تطبق علي...

عد إلي عقلك يا علي هاشم... تشبث بالو اقع وإلا جننت... ما أيسر أن يفعلوا ذلك فقد تكون هذه اللوحة مجرد شاشة عرض متقنة... عد إلي الو اقع... أنت لست مخرجاً في السينما ولا بطل رو اية ولن تخرج فيلم إعدام النملة ولا ذلك المتهم في المحاكمة الصامتة... لو كنت كذلك فما كان أجمل إنهاء فيلمك بهذا المنظر... لو كان ناجي موجودا لشاركني في إخراج الفيلم... خيوط العنكبوت تلتف حول الرجل وتمتصه... كنت ستجيد إخراج الفيلم فقد أجدت كل عمل في حياتك... لم تكن ستدع العنكبوت يبث سمه في البطل ولا أن يخدره ... كنت ستدعه يلتهمه حيا... قطعة قطعة... وهذا البطل لابد أن يكون رئيس جامعة أو وزيرا أو شخصا مسئولا هاما.. أو ضابطا بمباحث أمن الوطن.. كنت ستصطنع خيوط عنكبوت علي أبواب الخروج من دار العرض كي تذهل النظارة و ترعبهم...

أعود إلي الصورة... انكشفت اللعبة الآن فليس ثمة صورة و إنما شاشة عرض تليفزيونية وليس هناك عنكبوت بل مجموعة من الكلاب الضخمة تطارد فريسة لا تبدو في الصورة... من فرط إتقان رسم الكلاب أكاد أحس رذاذ لهاثها و أوشك أن أسمع نباحها ولو اختل تنفسي الآن فبدرت مني حركة لقفزت من داخل الإطار لتنشب مخالبها في حلقي..

تنبه يا علي... أغلب الظن أن هناك من يرقب ملامحك الآن علي جهاز تليفزيوني في مكان ما... عليك إذن أن تحتفظ بهدوئك... بقوة أعصابك... بتسلسل أفكارك وقوة منطقك وموضوعية حججك وحضور إجاباتك... .

ليس كمثل اليوم يوم... لو مر علي خير فلن أكتفي بالعمرة فقط بل سوف أتصدق كثيرا... سوف أبحث عن الخير أينما كان و أفعله...

المهندس علي هاشم مطلوب بالاستعلامات

قالها في الإذاعة الداخلية صوت رقيق ناعم حتى أنني ظننته للوهلة الأولى بداية أغنية رقيقة تصاحب الموسيقي الحالمة... هرعت إلى مكان النداء... وجدت شخصا ينتظرني... فاجأني بوضع بطاقة علي صدري... بعد أن ثبتها قال في رقة حازمة :

هذه بطاقة ممغنطة... أرجو أن تحافظ عليها في نفس المكان . بدونها لا يفتح لك باب كما تتعرض للقبض عليك .

قادني الموظف نحو بهو طويل يفضي إلي بهو آخر أكثر طولا... فتح بابا فدخلنا إلي صالة واسعة... كدت أتراجع... عشرات الجنود مدججين بسلاح مشرع... مررنا من بينهم و أنا أشعر بلهيب الشرر المتطاير من أعينهم... انقلب مستوي النجوم الخمس إلي مستوي السجون... الآن بدأ الجد... تفضي الصالة إلي عشرات الممرات الملتوية... دخلنا أحدها فإذا به يؤدي إلي باب مغلق... كل الأبواب والجدران كالحة مقبضة متجهمة عدوة متربصة متشابهة... اكتشفت أن الباب الذي نقف إزاءه باب مصعد... ألقي المرافق بتعليماته :

- ستدخل المصعد الآن... اجعل البطاقة الممغنطة تجاه لوحة الأزرار... ستجد زميلا لي في انتظارك هناك .

تساءلت :

- أي دور؟

أجاب في ذات الابتسامة الغامضة المروعة :

- ما عليك إلا أن توجه البطاقة الممغنطة إلي لوحة الأزرار.

كيف يخطو المحكوم عليه بالإعدام خطواته الأخيرة نحو الشنق ؟... بم يشعر ؟... كيف تحمله قدماه؟.

لم أعرف إن كان المصعد يصعد أم يهبط... في إحدى عمليات وزارة الدفاع التي رفضتها كان المبني يمتد تسعة طوابق تحت الأرض... فتح باب المصعد... وجدت رجلا كنفس الرجل ينتظرني . ... اصطحبني دون كلمة خلال طريق طويل معقد متشابك إلي غرفة انتظار صغيرة وأغلق الباب خلفه... تهالكت على المقعد... لكنني لم أكد أفعل ذلك حتى هببت و اقفا... فثمة صوت ضعيف... أَنـــّةٌ أو صرخة من مكان سحيق... يا إلهي أنقذني... قفّ شعر رأسي هولا و أقشعر بدني رعبا... يا رب... ينفجر الرعب داخلي فتتناثر بقايا ذكريات مدفونة... هل الله لا يوجد هنا كما كان ذلك الضابط يقول؟... أستغفر الله العظيم... أتحسس المصحف في جيبي... على قلبي... أتمنع السياط والركلات عني أم تتلقاها معي ... دبيب يسري داخلي... ليس كدبيب نمل بل ثعابين صغيرة تسعي تحت جلدي... أصيخ السمع فيخيم صمت قبوري... ربما لم يكن ما سمعت أنينا إنما مواء قط أو عواء كلب أو صفير صرصار بل وربما يكون صوت المقعد الخشبي القديم الذي جلست عليه... علي أن أطمئن نفسي... لو فقدت أعصابي الآن هلكت... إن لم أقنعهم بهالتي وهيبتي وعقلي وحكمتي فلن أقنعهم عاريا معلقا والسياط تنهش جسدي... جلست... هل يمكن أن يحس بالأمان في هذا المكان أحد ؟... أولئك العاملون فيه ألا يحسون هولا كالذي أحسه...؟ هل يخافون من بعضهم البعض كما يخاف الناس منهم... " العاملون فيه ؟!!" ... يخيل لي أنهم ليسوا عاملين فيه... وليست وظيفة... بل خلقوا هكذا... جنس آخر غير جنس البشر وغير جنس الملائكة وغير جنس الشياطين ... جنس اسمه مباحث أمن الوطن... جنس آخر... لا يخيفه ما يخيفنا ولا يفرحه ما يفرحنا ولا يردعه ما يردعنا

وليست له آمالنا ولا أحزاننا... أفضل الأصوات عندهم صراخ بشري وأعذب النغمات حشرجة محتضر وأسمى الشرف هتك عرض و أعلى العدل تلفيق قضية وأجمل الألوان لون نافورة دم تنبثق تحت ضربة ... جنس آخر... كأن علماء السلالات يستنبطونهم في مزارع ضخمة يستخدمون فيها أرقي ما وصل إليه العلم من تكنولوجيا فيستبدلون جيناتهم كي يخلقوهم في النهاية خلقا علي تلك الهيئة التي نراها...

أغلب ظني أن مخاوفي مبالغ فيها تجاه مباحث أمن الوطن، دائما كل شيء مبالغ فيه...

أتذكر فجأة و اقعة قد ضحكت طويلا عندما سمعتها من المشرف الذي يشرف علي مزرعتي الكبيرة في الصالحية حيث كان يعمل منذ سنوات وسنوات مديرا للزراعة في إحدى المحافظات... أحد كبار المفتشين بمباحث أمن الوطن كان يمتلك عزبة صغيرة من أربعين فدانا كان يقضي فيها مع أسرته عطلة نهاية الأسبوع... كان قد أنشأها بصورة عبقرية... لم يستول عليها من أحد ولم يدفع فيها شيئا... كانت الأرض مستنقعات وبورا وكان يجاورها معسكر للأمن معظم جنوده من الفلاحين... استغل المفتش خبراتهم و أجهزة مديرية الزراعة فأنشأ المزرعة ثم بحث بين المجندين عن البناءين والمهنيين فأوكل إليهم بناء الاستراحة وتسابقت المعارض الخاصة للتجار والأقسام الحرفية في السجن المركزي والملجأ لتقديم الأثاث فتحول البيت الصغير إلي جنة كان يحضر إليها من القاهرة ليقضي بها عطلة نهاية الأسبوع... وذات يوم اكتشفت زوجة المفتش داخل المطبخ فأرا فطلبت منه أن يوصي بسم للفئران ... كلم المفتش ضابطا في فرعهم بالمحافظة فاتصل هذا بوكيل وزارة الزراعة الذي ظن أن المفتش يريد تطهير المزرعة كلها من الحشرات والفئران فأعلن حالة الطوارئ وألغي إجازة يوم الجمعة لجميع

العاملين... وفي صباح يوم الجمعة كي تكتمل فصول الملهاة كان الضباب كثيفا وتوجهت الحملة الميكانيكية لمديرية الزراعة إلي مزرعة المفتش الذي استيقظ علي صوت المجنزرات فظن أن تمردا قد حدث بين قوات الأمن وأنهم ذاهبون لاعتقاله فاتصل بالأجهزة المختصة وبمكتبه في الوزارة، ثم وقف خلف ساتر متأهبا لإطلاق الرصاص من بندقية آلية... وسرعان ما كان آلاف من رجال الأمن يحاصرون الحملة الميكانيكية مهددين بإطلاق الرصاص إن لم يستسلموا علي الفور، فتكشفت الأمور ليحل الغضب محل الرعب ... . ثم يتحول الغضب إلي دهشة ثم تسفر الدهشة عن ضحك هستيري والمفتش يقول لوكيل الوزارة الذي كان يتصدر الحملة بنفسه :

- كنت أريد قليلا من سم الفئران في زجاجة .

لعلي أبالغ في خوفي إذن...

(١٢)

اقمع انفعالاتك و إلا حدث لك ما حدث للأب يوحنا أو لناجي... لماذا أشعر نحو ناجي بالذنب دون سبب؟

كان ذلك بعد خروجه من السجن... كان قد أكمل الشهور الأربعة من الحبس الاحتياطي فحوكم مسجونا... وبعد ثلاثة أيام من المحاكمة حكمت المحكمة بالبراءة... لم أحضر المحاكمة... صوت إيفيلين الصارخ بث الرعب في قلبي... ظننت أنهم حكموا عليه بسجن طويل أو أن مكروها أصابه... اكتشفت أنها صرخات فرح... أرسلت من يساعد في إنهاء الأوراق و أرسلت سائقي بسيارة كي يصطحب إيفيلين في إجراءات الإفرج الأخيرة... طلبت من المحامي أن يمر علي... شكرته وهنأته... كان سعيدا... لم يحاول رفع شأن كفاءته ولا ادعاء أن مر افعته الفذة هي السبب في البراءة...

قال له ناجي أثناء المحاكمة أنه سيحصل علي البراءة... لا لأنه مظلوم ولا لأنه علي حق بل بفضل عوامل الزمن... و سأله المحامي كيف ؟... فقال له ساخرا أن أحد عشر عاما كافية لأن يشيخ أعداؤه... أن تتسرب السلطة من أيديهم... أن يفقدوا أهميتهم... و أن المسئولين الكبار لم يعودوا كبارا... و أن القضية نفسها قد شاخت ولم يعد لها أنياب تؤذي أحدا غيره ... قال له أنه لم يدرك إلا منذ عام أنه كان مخططاً أن يدان منذ البداية فإن لم تمكن إدانته فإنهم سيعملون علي استمرار محاكمته عشرة أعوام تسقط بمضيها جريمتهم... بالتقادم... الجنايات تسقط بعد عشر سنوات وقد مرت وازدادت عاما...

ذهبت إليه في المساء ... .. كانت إيفيلين سعيدة كما لم أرها من قبل... منحتها السعادة جمالا فوق جمالها الأخاذ... انقشعت قتامة الحزن من ملامحها... أخذت زخرفها وازينت حتى أنني انبهرت عندما رأيتها ربما بأكثر من انبهاري حين عرفتها لأول مرة... تجسدت فيها الأنوثة والرغبة العارمة في الحياة... راحت عيناها تتحدث وجوارحها تنطق ... لم تكف عن الحركة... ولا عن الاعتذار لأنه نائم... كانت تهمس... وتحذرني إذا ما رفعت صوتي:

- " أرجوك... دعه نائما... حين جاء كان ضعيفا جدا... فقد عشرين كيلوجراما من وزنه... دخل ليستحم علي الفور... وطلب أن ينام... بصعوبة تناول كسرة خبز وحبة فاكهة... توسلت إليه... حايلته كطفل... وهو الآن نائم نوما هادئا... لقد نجحت ... حمدا للرب ... أكاد أجن لمجرد تخيل عدم نجاحي ... لو أنهم حكموا عليه بالسجن سبع سنوات كما قالوا لي... لو أنهم سجنوه لم يكن سيضيع وحده، كنت سأضيع أنا الأخرى، لم أكن لأتورع عن ارتكاب جريمة قتل ... إنه العمر والبيت والأهل والوطن... وليس لي في الدنيا أحد آخر ".

ثم تقوم علي أطراف أصابعها فيفوح عطرها وتسير بخفة تتنصت علي صوت أنفاسه المنتظمة وتقتنص نظرة من خصاص الباب ثم تعود : " سنعود إلي أمريكا علي الفور... لم أعد أحتمل... ولا الأولاد... ناجي أمريكي وليس مصرياً... أما أنتم فليساعدكم الله... هذه بلادكم... أنتم أولي بها وهي أولي بكم".

سألت نفسي يومها:

- كيف يا رب يتعرض كل هذا الجمال لكل هذا الألم؟!"

دَخَلَت إحدى الغرف ثم دلفت منها بعد قليل وقد أضافت إلي ملابسها معطفا :

أرجوك مستر علي... هناك واجب لابد أن أؤديه الآن... لن أطمئن على ناجي إلا و أنت معه... الأولاد نائمون... قلت لها أنني أستطيع أن أقوم بهذا الواجب نيابة عنها... لمحت في عينيها بحرا زاخرا من مشاعر النشوة والانتصار والفرح والغضب والحقد والمرارة والانتقام... حاولت معها مرة أخري لكنها همست:

- إنه واجب لا يستطيع أن يقوم به أحد آخر.

وهي تفتح الباب استدارت لتقول :

- لن أتأخر... نصف ساعة على الأكثر...

استبد بي القلق... ملامح إيفيلين لا تريح... وتلك المشاعر الصاخبة قد تخفي أشد النوايا خطورة ... ثم ما هو الواجب الذي لا يستطيع أداؤه سواها... ولماذا لم تقل لي ما هو هذا الواجب... إيفيلين أمريكية ولا تحكمها عقد الشرقيين... لم ألحظ قبل ذلك أن لديها أسرار تخفيها... تنداح إلى مجال الوعي أصداء خافتة وذكرى غائمة و إحساس مشوش... كانت تعلق علي حادثة ما منشورة في الصحف... لا أذكر ما قالت... لا يبقي في الذاكرة سوي دهشتي وتساؤلي كيف يستطيع كل هذا الجمال وكل تلك الرقة أن يحتويا على كل هذا القدر من القسوة والرغبة في الانتقام ... أفزعني هاجس أن تقدم على انتقام ما... أن تطلق الرصاص مثلا علي أحد أعداء ناجي... على من ورطه في هذه القضية... يا إيفيلين قضية ناجي حساسة واحمدي الله على

نجاتكما معا وعلي انتهائها علي هذا النحو... كنت أواسيها و أطمئنها - و أنا نفسي غير مطمئن – أن القضية ستنتهي بالبراءة فتقول :

- "ومن يعيد إلينا أحد عشر عاما سرقت من أعمارنا ".

الحمد لله أن ناجي لا يملك مسدسا... هل يمكن أن تكون قد ذهبت إلي الكنيسة لصلاة شكر؟... هل عثرت على أحد من يملكون المفاتيح السرية للأبواب الموصدة وذهبت إليه توفيه باقي حقه؟...

انتهى قلقي عندما عادت في الموعد الذي حددته... نصف ساعة بالضبط... أرقب ملامحها فيستبد بي فضول ليس من عاداتي...

- شكرا مستر علي... كان يجب أن أذهب...

في اليوم التالي ذهبت أيضا لزيارة ناجي... كنت أريد أن أشاركه سعادته بانتهاء الكابوس... كانت سعادة إيفيلين مشوبة بقلق... لا يكف عن النوم... عندما تجاوز الأمر حده حاولت إيقاظه فأبدي انزعاجا وضيقا... لم يتكلم... لكنها شعرت أن ما يدفعه إلي النوم ليس الإجهاد ولكن لأن اليقظة عبء ثقيل عليه... أنه لا يريد أن يسمع ولا أن يتكلم ولا أن يرى ...

دخلت إليه... حاولت مرة أخرى إيقاظه... أخبرته بوجودي... حملق فيها و ابتسم ثم عاد إلى إغماض عينيه... قالت إيفيلين أن حاله في السجن كان أفضل... عندما لم أجد ما أقول سألتها عن طعامه وشرابه... يرفض الطعام تقريبا... بضع لقيمات لمجرد التخلص من إلحاحها... قلت لها أنه لو استمر كذلك حتى الغد فسوف أرسل إليه طبيبا من زملائه فردت علي الفور :

- ليس من زملائه أرجوك... تجنبه معظمهم بخسة منذ أعوام ... القليلون الذين اقتنعوا منذ البداية ببراءته تحول اقتناعهم مع استمرار القضية إلي إشفاق كان يؤلمه أكثر.. ليس من زملائه .

هاتفتها صباح اليوم التالي فأخبرتني أنه ما يزال كما هو... خاطبت طبيبا أعرفه فذهب ليفحصه... قاوم ناجي إجراء الكشف بفتور لكنه سرعان ما استسلم... لم يجب أي سؤال للطبيب الذي قرر أن حالته العضوية لا غبار عليها في حدود إمكانيات الكشف الظاهري فيما عدا بعض الأنيميا والهزال ... لكنه ينصح بإجراء بعض التحاليل و أشعة مقطعية للمخ... سألها إن كان يدمن أي نوع من المخدرات أو إن كان قد تعرض لحادث ما فأخبرته أنه كان في السجن... عندما طلبته في التليفون قال أن أسوأ ما يواجهه الطبيب ألا يعثر علي تشخيص في مريض يعاني... و أن الاحتمالات عنده مشوشة... قد تكون أعراض إصابة بالمخ وقد تكون التسمم بمخدر... بزيادة الجرعة أو بنقصها عما تعود عليه ... وقد تكون مجرد حالة نفسية لذلك فهو يرى عرضه علي طبيب أمراض نفسية لكن بعد أن نستبعد بالفحوصات أي مرض عضوي ، استدرك قائلا في تردد :

- هناك احتمال بعيد لكن لابد من طرحه في مثل حالته... لقد لاحظت بعض الإصابات بجسده ورأسه... لذلك لابد من إجراء الأشعة المقطعية .

هتفت مندهشا : - إصابات... ؟؟!!

باترة حادة :

- نعم...

- مم ؟؟...

مغلقا أي باب للاسترسال :

- لم أسأل ولا أريد أن أعرف .

- هل تنصح بدخوله المستشفى...

- ليس قبل إجراء الأشعة...

- هل هي عاجلة جدا فنجريها الآن...

- ليس هناك احتمال محدد عندي... لكنها ليست عاجلة جدا...

خاطبت إيفيلين كي أخبرها برأي الطبيب لكنني لم أجدها... رد علي ابنها الصغير... طلبت سيارة إسعاف من المستشفى واصطحبت ناجي... كان علي أن أذهب إليها ... وعندما ذهبت كانت قد أنهت إجراء الأشعة وتحليلا للدم بحثا عن آثار مخدر... كانت النتائج سلبية... وبالرغم من ذلك أرادت إدخاله المستشفي لكنه رفض بإصرار صامت لكنه نهائي وحاسم... حاولت التحدث معه فراح ينظر إليّ ويبتسم... أعدناه إلي المنزل... اتصلت بالطبيب و أخبرته بنتجة التحاليل والأشعة فأملي عليّ اسم دواء مضاد للاكتئاب نصح باستعماله حتى نرتب لزيارة طبيب الأمراض النفسية... شاركت في إقناعه بتناول القرص ... شكرتني إيفيلين وقالت بملامح جامدة :

- لا تتركنا هذه الأيام مسترهاشم... أرجوك...

في المساء عندما ذهبت كانت إيفيلين تبكي في صمت... همست قائلة:

- كأنه ليس هو... كأنهم استبدلوه بشخص آخر... لا أعرف ماذا يفعلون بهم هناك... ساعدني مسترعلي... أرجوك... أريده فقط أن يسيرعلي قدميه كي آخذه إلي بلادنا علي الفور... أنا خائفة... " مسترعلي... إدخل إليه "... .

كـان ناجي جالسا في سريره... قابلني بذلك الفتور الذي يخفي به عواطفه... تعودت ذلك منه... دائما يعبرعن نفسه في لحظات التوتربمشاعر مقلوبة... رحب بي دون أن يصافح ... جلست علي مقعد بجواره حائرا فيم يمكن أن أحدثه لكنه لم يترك لي الفرصة... أخذ يتحدث عن أنواع السمك وكيفية صيده... عن تلك السمكة البريئة التي لا تطلب من الوجود سوي الطعام و وضع البيض... كيف تشعر لحظة انغراس الشص في جوفها...

كيف تحاول الخلاص دون أمل... كيف تتقافز وكل قفزة تغرس الشص فيها أكثر وتسبب لها ألما مروعا يشعل الجحيم في حشاياها ثم كيف تموت... ثم ما هي القاعدة التي تجعل سمكة تسقط وتنجو أخري... وكيف يكون هذا مصدر سعادة لآخرين ... راح يتحدث عن البرعي... عن الفئران وحقها في الحياة... عن المسكين الذي دفع عمره ثمنا لجهله بالمعني الدارج لكلمة Freeze ... عن صبحي طيشة... عن الصراصير والبق والنمل... عن القاضي والمستشارين... عن الكون الذي لا نهاية له ... عن الثقوب السوداء حيث لا زمن ... عن العرقسوس... عن الانفجار العظيم... عن الدقائق الثلاث الأولى في عمر الكون... عن نجوم تسبح في سديم الكون منذ خمسة عشر مليار عام لكننا لا نعرف أنها انفجرت وماتت منذ كذا مليار عام ... حتى شعاع الضوء الذي كان قد انطلق منها وهي لما تزل ولما يزل يصل إلينا لا يعرف هو الآخر أن نجمته الأم ماتت... تفتتت... تلاشت و انتثر غبارها في سديم الكون و أنه يخبر بالكذب عن وجودها... تماما كما يخبر خطاب بالكذب عن أحوال مرسله الذي أرسله ومات والخطاب لما يصل بعد...

عن موءودة سألت بأي ذنب قتلت... عن الأبجديات... عن عشرين أو ثلاثين حرفا وكيف استطاعت أن تصوغ تلك الملايين من الكتب وتيك بلايين بلايين بلايين بلايين الكلمات... عن شهيق لا يعرف إن كان سيتلوه زفير وزفير لا يدري إن كان سيعقبه شهيق ... عن ملايين وملايين ماتوا ظلما دون أن يعرفوا لماذا ماتوا ولماذا كان عليهم أن يدفعوا ثمن حماقة الآخرين وظلمهم... عن رميم عج ذات يوم برغبة ... وضلوع ينخرها السوس خفقت ذات يوم بحب... عن أمل نزف... ورجاء انقطع ... وتوقع خاب ... وروح انذبحت، عن دعاء لم يُستجب وعن قضاء لم يرد، عن شهداء كانوا يطلقون عليهم السباع الجائعة وعن تلك اللحظات بين التيقن من الموت والموت... عن حيوات زالت

ودول دالت ودماء سالت وعصور انقرضت... عن فرحة وحشية لإنسان بدائي منذ مليون عام وهو يطلق صيحة النصر حين اصطاد غزالا... أين هو الآن و أين هو الغزال... عن قطرة دم معلقة علي ذؤابة سيف... وعن ذلك العناق الدامي بين رمح وقلب... عن حروب نشبت وجواري سبيت وقبائل أسرت... عن أحرار تحولوا لعبيد... عن أطواق من الحديد تحيط بأعناق تجرها سلاسل... عن ذلك الصوت الجميل يرتل القرآن في عنبر الدعارة... عن نشوات فاجرة بالانتصار والمنتصر يشرب الخمر في جمجمة ضحيته وعدوّه ثم ينتهك بناته وامرأته... عن ذل يعقب جبروتا وعن جبروت يعقب ذلا... عن التشفي بالانتقام والفم يلوك كبدا بشريا... عن قلب يهتف ضارعا : " لك العتبي حتى ترضي".

عن مصانع تصب البلايين والبلايين من طلقات الرصاص والقنابل دون أي فكرة ودون أي علاقة بمن ستخترقه في النهاية شظية... عن صواريخ تنطلق لتحصد من لا تعرف ومن لا يعرف من أطلقها... عن عامل منجم في أنجولا يستخرج النحاس من منجم ليصدر إلي الخارج تصنع منه رصاصة تباع في بلاده وقد تُطلق عليه... عن الملوخية والجبنة القديمة والماء والعيش... عن الانخداع والوهم ... عن النمل... عن حضرة الصول ذي القوة والجبروت... الأكبر والأعظم والأهم ... عن قاضي بوسي لامارتين ... عن شيء ما ملفوف في بطانية يخرج من باب خلفي... وعن متهم في فيلم صامت يحطم القفص ويصرخ بالكلمة الوحيدة في الفيلم : بـــاااااراااااءاااااه... ...

حاولـــت أن أتجاوب... أن أشترك معه في الحديث... أن أعلق... أن أرد عليه فيرد عليّ... لكنه كان يواصل الحديث كأنه لا يسمعني ... .. تكلم كثيرا جدا... حتى يئست... ظننت أنه سيواصل الحديث بلا انقطاع... كان يلهث وكنت أسمع دقات قلبه... خشيت عليه من كل هذا المجهود وكل هذا

الانفعال... أخيرا جدا صمت... التقط قيثارة أحد طفليه من جواره... و أخذ يعزف عليها لحنا حزينا لعله من السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وبعد قليل نظر إلي نظرة غريبة... كأنها شامتة... ثم همس :

- " أريد أن أنام ".

وعلى الفور أدار وجهه للحائط وسحب الغطاء علي وجهه... قمت مثقلا... صاحبتني إيفيلين حتى باب المصعد... لم تكن دموعها قد توقفت بعد... تمتمت في ذهول : " مستر علي : هل تظن أنه جن "... وقلت لها - غير مصدق لنفسي - أن الأمر لا يصل إلي ذلك و أنها أزمة عابرة وربما يكون الأمر مجرد انهيار عصبي سرعان ما يشفى منه وربما يكون عرضا جانبيا للقرص الذي أعطيناه له... أكدت لها أنني سأرتب الأمر كي يتابع طبيب نفسي حالته من الغد... همست في صوت رهيب : " مستر علي... لقد عذبوه ".

استبعدت الفكرة علي الفور كي أطمئنها فقالت أنها شاهدت جسده للمرة الأولى والطبيب يفحصه... ثم واصلت : " في لحظة لم يكن فيها منفصلا هكذا سألته... قال لي أنهم كانوا يصطحبونه في الليل إلي نزهات خلوية... وأنهم كانوا يحاولون أثناءها إقناعه بالاعتراف علي نفسه... سألته : " أين كانوا يذهبون بك "... فأجاب ببساطة أنه لا يدري لأنهم كانوا يعصبون عينيه " قلت لها أن الأمر قد لا يعدو ما قال فعلا... وربما حدث ذلك مرة أو مرتين... فهمست :

" بل كل ليلة... وقد زادوا من الجرعة بصورة خاصة في الأيام الأخيرة قبل المحاكمة " . وفجأة أجهشت ببكاء خفيض وهي تتمتم : "علي جسده ورأسه... علامات سياط وكدمات زرقاء وسوداء و آثار حروق ".

كنت عاجزا ولم أدر ماذا ينبغي علي أن أقول أو أن أفعل فقلت لها أنه خلال يوم أو يومين سيتحسن وسنعرف منه كل شيء... ثم أننا سوف نعرضه علي طبيب نفسي غداً... فقالت : " أتمنى ذلك... لقد حطموا قلبه... ويخيل إلي أنه لم يعد يريد أن يعيش ".

ماذا كان اسم ذلك الرجل... صبحي عبد العاطي... محسن عبد الباقي... أو حسام عبد الشافي... لا أذكر... لكنني لا أنسي قط كيف عذبوه في دمياط حتى الموت لمجرد بلاغ كاذب اتهمه بالسرقة... رجال أمن الوطن... فهل يمكن أن يكونوا قد فعلوا بناجي مثلما فعلوه به... أن يكونوا قد حاولوا قبل جلسة النطق بالحكم إجباره على الاعتراف حماية أو مجاملة لأشخاص بعينهم؟.

مع من في مثل وضع ناجي لا أظن... لكن لماذا تستبعد ذلك وقد فعلوه مع الأب يوحنا؟...

في اليوم التالي... دق جرس التليفون في غرفة نومي في الصباح الباكر... جاءني صوتها هامسا أجشاً: "مسترعلي، أحضر الطبيب وتعال فورا "

سألتها ماذا حدث؟ أجابت بسرعة : " لاشيء... هو بخير... من المؤكد أنه بخير... لابد أن يكون بخير".

كان صوتها مرتجفا... مرتبكا... وبدا أنها تعاني صعوبة هائلة في رتق كل حرف بحرف كي يصبح كلمة ... قالت :" إنه يرفض الاستيقاظ " قلت لها : لعله مجهد أو نائم بعمق... لكنها واصلت :" حاولت إيقاظه حتى بعنف فلم أنجح " فتساءلت والقلق يستبد بي: "هل تعنين أنه مغمى عليه... أنه في غيبوبة "؟ فردت بصوت نائح : " لا أسمع صوت تنفسه ولا أحس نبضه "... هتفت في جزع : " ماذا تقولين... هل... " - لكنها قاطعتني صارخة في ارتياع : " لا تنطقها ... هو بخير... أحضر طبيبا... أرجوك... بسرعة ... أرجوك ".

قال الطبيب أنه مات منذ ساعات... ... ...

(١٣)

هل يمكن أن أكون مطلوبا في مباحث أمن الوطن لسبب يتعلق بناجي أو إيفيلين؟ أعرف أنها أثارت ضجة كبري بعد عودتها إلي أمريكا... تحدثت أمام وكالات الأنباء العالمية ومحطات التليفزيون الفضائية وكتبت في الصحف... يقال أنها سببت حرجا شديدا للحكومة عندما نشرت ما تعرف وعندما سردت تفاصيل القضية هناك، هل يمكن أن يكون ذلك هو السبب ؟

لكنني لم أفعل شيئا... بل وتعمدت ألا أتابع أخبارها... وعندما سألني البعض باعتباري صديقا قديما لناجي عن صحة ما يسمعون قلت لهم أنها مصابة بانهيار عصبي وربما جعلها هذا تتخيل أشياء لم تحدث... لقد تجاهلت الحكومة الحكاية كلها فلم تنشر عنها حرفا لكنني علمت أنهم استعملوا تبريري الذي لا يدين أحدا وتفسيري المقنع في رد رسمي علي السفارة الأمريكية...

طال الانتظار... نفد صبري... لكن ينفد أو لا ينفد ليست لي حيلة... أحاول أن أتخيل كيف سيكون اللقاء... أن أتوقع فيم سيسألونني... وأن أعد أيضا إجاباتي إذا أمكن... لكن رأسي فارغ تماما... فلا يستطيع إلا الانتظار المفروض عليه مغرقا خلاف ذلك في ذكريات شتي... أقول لنفسي : لا تفكر فلن تجيب بما تريد أن تقوله بل بما يريدون هم أن تقوله... أنت لن تتعامل مع بشر مثل الذين تعاملت معهم طيلة عمرك... ربما كانوا بشرا من طينة أخري وربما كانوا وحوشا وربما وجدت لسيادة اللواء حسين بركة جسد جواد و أنياب كلب ورأس عنكبوت.

أحاول أن أشكم هواجسي وخيالاتي... أن أوقف جنوني... وبرغم أن الأفكار مجرد انسياب داخلي خارج نطاق الإرادة إلا أنني في مكان ينبغي فيه أن لا يدور بذهني مثل هذه الأفكار المحرمة والمجرّمة.

عليّ أن أرتب نفسي وفكري وعقلي... منذ الأمس لم أفكر تفكيرا حقيقيا فيم استدعيت له... غير الهواجس والهم لاشيء... يجب أن أفكر... ومن حقي أن أستبعد السبب السياسي فليس لي بالسياسة علاقة... بمعنى الجرائم الحقيقي ليس لي جرائم... لم أتورط ... فأنا أطبق بإخلاص فائق ذلك القانون غير المكتوب... بل و أقدسه... لا عن مجرد احترام له و اقتناع به... بل لأن قانون عقوباته لا يشمل إلا ثلاثة مواد فقط... الموت والخراب والسجن في تباديل وتو افيق تختلف باختلاف الجريمة وموقع من وقعت في حقه... ذلك القانون الذي تقول بنوده: افعل كما تشاء مادمنا لا نراك... لكن عدم الرؤية هذا له شروطه... لم أخالف تلك الشروط قط... فلماذا أنا هنا إذن؟؟.

وهل ما يطبق علي الآن هو القانون العادي الذي لا يطبق إلا علي عامة الناس أم قانوننا غير المكتوب...؟؟ ذلك سؤال مهم وهو الذي يحدد طرق إجابتي...

متى يأتون لاصطحابي ؟؟...

لكن لماذا أستعجل الأمر؟!... .

ترى كيف يبدأ اللقاء ؟.

لو مرت الدقائق الأولي بسلام فربما استطعت أن أكسب الجولة... أرجو الله أن لا يحدث معي ما حدث مع الأب يوحنا... تنساب الذكريات بالرغم مني...

سمعت بنفسي هذه الواقعة من الرائد علاء حيث كان أحد أطرافها... كان ذلك في مأدبة عشاء عند أبيه وهو أحد أصدقائي... ارتجع حامض المعدة فكوى قلبي و أنا أسمع... كان علاء في ذلك الحين رائدا في المباحث الجنائية وكانت جعبته لا تنفض من الحكايات الطريفة حول عمله... تلك الليلة أخذ علاء يقص علينا نوادر الاعتقالات السياسية فضحكنا علي ذلك الرجل الذي أمسكوه وهو يزيل لحيته الكثة خوفا من أن يعتقلوه بسببها ودرءا للشبهات عن نفسه إذا ما اعتقلوه... كان قد أزال نصفها فقط. وظل حتى نهاية اعتقاله بنصف لحية... حكي لنا أيضا كيف يحطمون أثاث المعتقلين أثناء بحثهم عن الممنوعات... كيف يهينون ذويهم ويتعمدون إذلال المعتقل بضربه أمام جيرانه و أنهم لا يفعلون ذلك عن مجرد استمتاع به لكن يجب كسر إرادة أولئك الإرهابيين وإهدار احترامهم بين الناس حتى إذا أفسد القضاء كل جهودهم بأحكام البراءة عادوا مذلين مهانين بين الناس لا ترتفع لهم رأس ولا تسمع لهم كلمة وقد سقطت مهابتهم.

استدرك علاء فجأة ليقول أنه كاد ينسى أهم ما يريد أن يقصه علينا عن واقعة حدثت له عام ١٩٨١م.. ولست أنسى في تلك الليلة كيف وهو المرح اللامبالي دائما لم يستطع أن يخفي ارتجاف صوته... إذ جاءه أمر بالقبض علي الأب يوحنا الشهير... وأثناء توجهه لتنفيذ الأمر جاءه باللاسلكي أمر بالعودة... عندما عاد علم أن المحافظ ومدير الأمن قررا أن يستدرجا الراهب إلي القاهرة بحيلة خوفا من حدوث مذبحة أثناء القبض عليه من الكنيسة في ظروف الفتنة الطائفية المستترة، ذهبا إليه بنفسيهما وأبلغاه أن كبار المسئولين سيعقدون اجتماعا مع كبار رجال الدين الإسلامي والمسيحي لمحاصرة الفتنة التي تأخذ بخناق الوطن... انطلت الحيلة علي الأب يوحنا...

حضر معهما إلي المحافظة حيث قوبل بكل الحفاوة والتكريم و انصرف من أتوا معه من عشيرته بعد مناقشات صاخبة اقتنعوا بعدها أنه لا يليق أن يذهب الراهب إلي الاجتماع الخطير محاطا بالمئات أو حتى العشرات من آله وكأنهم لا يأمنون الدولة... بعد انصراف الموالين اصطحبه الرائد إلي القاهرة... التزم الأب الصمت الكامل... فتح الإنجيل وأخذ يقرأ فيه ... داخله نوع من الحرج لاشتراكه في خداع الرجل... خفق قلبه عندما تنهد الأب رافعا نظارته ناظرا بعينين غائمتين إلى الأفق ثم إلي ما بعد الأفق ثم إلي اللاشئ ثم تمتم قائلا :

- قلبي يحدثني أنكم تأخذونني إلي السجن لا إلي الاجتماع.

لم يرد عليه أحد فخيم الصمت مرة أخري... كسا الصمت الوجوه برهبة... وانبثقت من جنبات الرهبة هالات غامضة من الحزن و الجلال فتساءل الرائد هل عرف الأب الحقيقة بذكاء الرجل أم بحدس الراهب... .أحس بالهيبة تكتنفه ... اندهش أن يحس -وهو المسلم - بهذه الهيبة تجاه رجل دين مسيحي... فسر الأمر لنفسه بأن الله واحد وهو رب الجميع... لم يستطع أن ينكر أيضا هل كان يمكن أن يحس ذات الشعور لو كان الراهب شيخا من شيوخ المسلمين. اندهش هو نفسه لأن إجابته كانت بالنفي ... أحس بالتناقض والإثم... وفي الجزء الباقي من الطريق أخذ يبرر الأمر الشاذ... يحاول أن يلتمس المعاذير لخطئه... فالشيخ المسلم قوي وإيجابي ويسعى إلي الحكم... ولو نجحت خططهم لفعلوا برجال الحكم الحاليين أكثر مما يفعله رجال الحكم الحاليين بهم... إنهم خطر... والقسوة عليهم توق لهذا الخطر... وبالرغم من تبريره لم يقل إحساسه بالإثم...

إنه يشفق علي دين آخر ولا يشفق علي أبناء دينه... وهذا الإحساس وحده دليل علي خلل جسيم ربما يمس صلب عقيدته... أخذ يسائل نفسه هل تلك المحاضرات والدورات التثقيفية التي يعقدونها لهم علم حقيقي أم غسيل للمخ وصل به إلى هذا التشويه والانحراف؟

وصلوا أخيرا إلي ليمان طره... لم يبد علي الرجل انزعاج أو خوف... نزل في بطء وقور تمخض عن السن والعادة التي أملتها طبيعة العمل فبدا كما لو كان مدعوا لإلقاء موعظة... بدت مهابته للرائد باعثة علي مزيد من الأسى...

كان قد حضر إلي ليمان طرة قبل ذلك مرتين لتسليم معتقلين والمكان مألوف لديه... انشغل عنه قبل البوابة الرئيسية بتقديم أوراق والحصول على أوراق... توجهوا إلي البوابة الرئيسية مشاة فقصر من خطواته كي لا يسبق الناسك العجوز... صعدوا درجا قصيرا عند البوابة الداخلية الضخمة... بعد الدخول مباشرة دهليز طويل معتم تطل عليه غرفة الضابط النوبتجي... عرفه بنفسه فرحب به وطلب له التحية ثم طلب رقما في التليفون . ... لم يسمع الرائد إلا كلمات قليلة من طرف واحد :

- وصل يا معالي الباشا .

... ...

- بكل تأكيد... .

... ...

- لا... ... ...

... ...

- ذلك هو عملنا يا باشا

... ...

- مع السلامة .

وضع مسماع الهاتف ووجه حديثه للرائد :

- إبن الـ (...) في الخارج ؟.

برغم أن الرائد كان يستعمل مثل هذه الألفاظ إلا أن الدهشة تملكته، إنه يستعملها مع لصوص وقوادين وساقطات وحثالات بشرية لا يدركها حصر... أما أن تستعمل مع الناس العاديين فهذا غريب... أن تستعمل مع رجل دين فهذا أغرب... وأن يكون رجل الدين هذا مسيحي فهو أغرب وأغرب.

تبختر الضابط النوبتجى وهو يتجه نحو الدهليز... وكالمنوم مغناطيسيا وجد نفسه يسير خلفه... كان الراهب ما يزال واقفا بين جنديين ناظرا إلي أعلى في سكينة... اكتسي وجهه بابتسامة شاحبة... بدت ابتسامته أقرب إلي طلب العفو أو العدل أو العطف أو الرحمة أو المغفرة حتى لقد اعتصر الألم قلب الرائد علاء في نوبة حنان قاسية وهو يردد لنفسه:

- إنه إنسان... إنه إنسان...

أخذ الضابط النوبتجى ينظر إلي الراهب باستخفاف قائلا :

- أهلا وسهلا

قبل أن ينهي جملة الترحيب... في لمح البصر... اختطف سوطا من جندي بجواره وهوي به علي رأس الأب... اختلطت صرخة الضابط المروعة بصرخة الأب المذهولة في تناغم وحشي... سقط الراهب علي الأرض... أغلب الظن أنه لم يسقط من شدة الضربة بل من هول المفاجأة... تدحرج غطاء رأسه بعيدا فبدت صلعته... كانت ضربة الضابط الأولى إشارة للجنود فانهالت عشرات العصي والسياط علي الجسد العجوز الراقد صارخة فيه أن ينهض... والرجل يحاول فيتعثر فيكبو ثم ينهض فيقابله الضابط بضربة سوط على وجهه ورأسه يحاول أن يتحاشاها بيده فيتلقى عليها هراوة تفقده

توازنه فيسقط من جديد... علت صرخاتهم فيه أن يخلع ملابسه... أخذ ينزع نفسه منها والضربات تستحثه حتى عاد عاريا كيوم ولدته أمه... استمر الضرب ونسي العجوز كل شيء إلا أن يقي وجهه وأماكنه الحساسة من الضربات... استحالت محاولاته إلي رقصة شيطانية مرعبة... سقطت هالات الهيبة والجلال وبدا للرائد كعشرات ممن يفعل بهم نفس الشيء كل يوم وإن لم يكن بنفس القسوة... أخذوه بعدها إلى غرفة مجاورة... كادت تفلت من فم علاء كلمة استرحام كان يمكن أن تكلفه مستقبله.

كان معترضا علي ما يحدث فحتى بمفهوم القتلة واللصوص وقطاع الطرق قد خدعوا الرجل بطريقة دنيئة وضيعة . .

قطع تداعي الذكريات وجه صارم فوجئت به وسط الحجرة كأنما اخترق الجدار... انطلق منه صوت صارم كوجهه :

- علي هاشم . تعال ...

بدا لي اسمي دون لقب أو تفخيم غريب الوقع . ... كأنني لست المنادَي... ترددت برهة قطعتها منه نظرة صارمة باردة قاسية آمرة تعودت أن تطاع... تعودت أن تلقي الأمر ثم لا تثنيه ولا ترقب حتى بدء تنفيذه فليس لأحد القدرة علي عدم التنفيذ... مسلوب الإرادة سرت خلفه... كأنما قطعوا الاتصال بين جهازي العصبي وعضلاتي فأصبحت أطرافي تتلقى الأوامر مباشرة منهم .

في حجرة أخري انتظرت ... لماذا هذا الانتظار المتعاقب المتتالي ولماذا لم يتركوني أمام الجواد الممسوخ حتى موعد اللقاء... كان ذهني مكدودا وفكري مشدودا للدرجة التي أصبحت فيها لا أكاد أحس ... لحظة الاستغراق الكامل ... لماذا استبعدت السبب السياسي يا أحمق؟؟!!... تقول أنك كنت دائما بعيدا عن السياسة... أنك لم تفعل ما تؤاخذ عليه... فهل كان ناجي سياسيا؟ لقد قال لك المحامي أنه لولا موقف مباحث أمن الوطن منه لما حدث له ما

حدث... وعندما نظرت إليه بذهول متسائلا وما علاقتهم بأستاذ في الجامعة نظر إليك باستنكار لأنك مازلت تجهل قائلا : هم كل شيء في البلد... هم الحكومة والبلد... ولم يكن بينهم وبين الدكتور ناجي شيء معين... ثم أن جنسيته الأمريكية كانت تمثل له ضمانا من هجومهم المباشر... لم يكونوا ضده لكنهم كانوا مع خصومه... كنت بعيدا عن السياسة... يا أحمق... فهل فعل الأب يوحنا شيئا كان يقتضي أن يعامل بهذه الطريقة.

استدع الآن من تلافيف الذاكرة ما تركته مدفونا فيها فلم يمت... كنت قد وطنت نفسك بفكر علمي رصين أن تتجاهل ما لا تفهم وكنت تدرك جيدا أن الجهلة فقط هم الذين يظنون أنهم يعلمون... لقد اعتبرت سلوك نظم الحكم كالجن والعفاريت وطلاسم الطبيعة و أسرار الكون... كلها أشياء لا تنكر وجودها لكنك لا تملك سبيلا إلي فهمها... إلي التأثير فيها... ثم أن التأثر بها يبلغ من الندرة حد الانعدام... الآن ينفجر البركان تحت قدميك وما تزال جاهلا بطلاسم الطبيعة لكنك تصطلي بلظاها... أما مباحث أمن الوطن فكالجن مبثوثون كالهواء في كل فرجة من البلد يعرفون عنك كل شيء يحصون عليك حتى أنفاسك... يرونك ولا تراهم... منذ أربع وعشرين ساعة فقط لو أن أحدا سألك عما تعرفه عن مباحث أمن الوطن لنظرت إليه ساخرا وعزفت عن الإجابة لا مجرد تعال عن السؤال بل لأنك كنت تحسب أنك لا تعرف شيئا... الآن ينفجر مخزون الذكريات القديم فتفاجأ به عندما يستدعي عقلك ملايين الأحداث والكلمات فلا يبدو علي صفحة ذاكرتك سواها... ترى هل يعمل العقل الإنساني بطريقة الكمبيوتر حين تحتل شاشته النافذة المفتوحة لتحجب ما عداها.

الآن يخيل إليك أنك لم تعرف طوال عمرك غير مباحث أمن الوطن ولم تسمع كلاما عن شيء سواها... . كل حياتك خارج هذا المكان كانت محض وهم وخيال وأنت لم تعش إلا اليوم فقط وربما أيضا لن تعيش سواه... تستطيع الآن أن تفتي في شئون مباحث أمن الوطن و أن تفسر وتوضح وتبرر... وهم من وجهة نظرهم علي صواب مطلق... هم الملائكة ونحن الشياطين وهم الموكل إليهم أن يصلونا نيران الجحيم... لو داخلهم الشك ولو للحظة في صواب منطقهم لافترسوا بعضهم كالوحوش.

أملهم الوحيد في الوجود أن يؤمنوا أنهم على صواب... لا يهم مدى صواب هذا الإيمان أو خطأه... قال لك ميسور ماضي وهو يتبادل معك الحديث في وقت ميت في انتظار مسئول لتقديم هدية أن كل المسئولين في غاية التوتر لأنهم بدءوا يدركون أن عمليات الإرهاب الأخيرة قد أتت أكلها وبدأ بعض من ضباط مباحث أمن الوطن بعد تساقط زملائهم يتساءلون هل هم علي صواب أم علي خطأ... قال ميسور ساخرا أنها لم تكن صحوة ضمير مفاجئة لكن لما استحر القتل في زملائهم في الصعيد وتهددهم جميعا ذات المصير وجدوا نفسهم يتساءلون... وكان هذا التساؤل أخطر ما واجه السلطة طيلة حكمها فشددت النفير عليهم فشددوه هم على الناس.

لا يهم يا أحمق إذن أن تكون قد اقترفت في حق الحكم جريمة أم لم تقترف. لقد ضحكت طويلا عندما سمعت من أحمد رجب نفسه ما قاله للرئيس السادات وهو يتوسل إليه كي يفرج عن مصطفى أمين والرئيس يعد ثم يخلف ثم يقول أنه يعرف أنه مظلوم لكن لم يئن أوان الإفراج عنه فيقول له أحمد رجب : إذا كانت ضرورات النظام تقتضي أن تسجنوا بريئا فأخرجوه وضعوني مكانه فأنا الآخر بريء مثله... ضرورات النظام يا أحمق... لا يهم إذن أن تكون بريئا... ضرورات النظام تقتضي دائما أن يكون هناك مجرمون

مسئولون عن عدم تنفيذ الوعود... هل تتوقع مثلا أن يقف وزير المالية أمام التليفزيون ليقول أن سعر الجنيه ينهار نظرا لعجزه عن إدارة الاقتصاد... نظرا لأن فلانا يسرق وفلانا يختلس وعلانا يهدر... نظرا لخيبته وفشله و انتشار الرشوة والمحسوبية وفساد الحكم... أو أن يقف وزير الداخلية ليقول أن افتقاد الأمن ناتج عن سياساته الخاطئة وأن الإرهاب ليس إرهابا بل ردا علي ظلم رجاله وتزويرهم وتلفيقهم للتهم... أو أن يقف وزير العدل مقررا أنه لو ساد العدل وامتنع الظلم لساد الأمان.أو أن يقف.. أو أن يقف.

يا أحمق ... إذا حدث ذلك كله كيف يستمر الحكام حكاما وكيف يستمر جهاز أمن الوطن... إنهم يدافعون عن وجودهم... عن وجودهم أيها الكبش ولابد أن يكون هناك طول الوقت كباش جاهزة للذبح فداء لنظام الحكم... مسرح ومسرحية وكورس... كل عهد ولا استثناء... لا بد أن يكون هناك عدو توجه له ذات التهم... هل يستقيم أمر الحج دون شيطان يرجم... في السياسة أيضا لابد أن يكون لكل حاكم شيطان يرجم وعبيد يطوفون ويسعون ويسجدون ومباحث أمن وطن تَرجم... يختلف العدو لكن التهم دائما هي هي... الوفديون... مصر الفتاة... الإخوان المسلمون... الأحرار الدستوريون... رجال العهد البائد... اليمينيون... اليساريون... الشيوعيون...الناصريون... التكفير والهجرة... الشوقيون... الجهاد... وتلك الأحزاب التي لا أعرف أسماءها ولا أميز بين أهدافها... وعلي هاشم... نفس التهم دائما... النص ثابت رغم تغيير الممثلين.

هل تدرك الآن يا أحمق سر اللعبة الذي خفي عليك و أنت كالأعمي رحت تخيل لنفسك أن لا أحد يرى مثلما ترى أو يفهم مثلما تفهم... الآن أنت- لاهم - المسئول عن تدهور الاقتصاد وشيوع الإرهاب وفقر الناس و اختلال المعايير و افتقاد القيم ... وغدا تحتل مانشيتات الصحف رو ايات هائلة عن خيانات

مروعة لشخص لم تسمع عنه قط اسمه علي هاشم... وذلك يا أحمق ليس علي هاشم الذي هو أنت... بل شخص آخر لا تعرفه... لم تسمع عنه قبل ذلك أبدا... أو ربما يكون أنت... لكنه مكلف بأداء دوره الذي كتبه له المؤلف الذي لا يعرفه ولا تعرفه كي يمثل دورا لا يعرفه ولا تعرفه... تلك ضرورات استمرار النظام يا أحمق ولقد درست بمنتهى الدقة والحرص آلاف الموضوعات التافهة وغفلت عنها...

الفارق بينك وبين الممثل أن الممثل يؤدي دوره باختياره... يتقمص الشخصية التي كتبها المؤلف بإرادته... أنت هنا ستتقمص الشخصية أيضا لكن تحت وقع السياط والألم... لا... لن تتقمصها... ذلك لن يكفي... عليك أن تذوب فيها... أن يتلاشى تماما شخصك القديم فلا يبقي منه سوي اسمك... وأن يقتنع هذا الاسم بأنه بلا ذكريات ولا أحداث حياة ولا ماض إلا ما كتبه المؤلف المجهول من أحداث مجهولة... و أن تفعل ذلك كله بالإتقان كله لا لتحصل علي الجائزة التي يحصل عليها الممثل بل لتنال العقاب وربما الموت.

هل تذكر كيف كانت جدتك تعالجك من المرض... حين كانت تحضر مادة نصف صلبة كانت تسميها " الشبّة " فتضعها في النار كي تتشكل بملامح الشرير الذي أمرضك بحسده ثم تروح وهي تتمتم بالتعاويذ بمنتهى الغيظ والغضب والحماس واللهفة تغرس الإبر في الجسد المتشكل كي تقتل الروح الشريرة التي تقمصتك فأصابتك بالمرض... الآن يفعلون بك نفس الشيء و أنت لم تفهم يا أحمق... لم تفهم لماذا ولا كيف تتجنب ما يحيق بك الآن... كانت الحقيقة واضحة أمامك لكنك لم تفهم... كبرت الكعكة عليك فغص بها حلقك وهاهي ذي توشك أن تخنقك... غدا... وربما اليوم يصهرونك في النار ويرشقون فيك الرماح فتتبدل سحنتك وتتحول إلى ملامح العدو الذي

أصاب الوطن بالمرض وأوشك أن يورده موارد التهلكة... لماذا حرصت دائما أن تكون بعيدا عنهم ماداموا هم أبدا ليسوا بعيدين عنك ... لماذا مادام كان عليك أن تعيش في عرين الأسود لم تقدم لهم ما يصرفهم عن نهش لحمك... لماذا لم تصحب مزمارك لتنفخ فيه مادمت تقف في مسار الأفاعي... لماذا حرصت دائما علي الاستقلال بشركاتك... لماذا لم تبحث عن شريك قوي يحميك... مسئول كبير... والأفضل ابن مسئول كبير... لم يسع أحد إلي مشاركتك ؟؟... وهل تظن يا غبي أن أبناء الملوك والنبلاء يلجئون إلي الرعاع... بالنسبة للرعاع أنت سيد لكن بالنسبة للسادة لست سوى وغد صغير أغمضوا أعينهم عنه طويلا ... انتظروك كي تذهب وطال صبرهم عليك... لكنك لم تفهم... يا غبي... يا كبش تركوه حتى يسمن وقد آن أوان ذبحه .

دخل رجل آخر ... لم أر هنا نفس الوجه مرتين ... كم من الزمن مر... لا يهم... أنا الآن في عالم آخر له زمنه المستقل... هذا الرجل يشبه بصورة مزعجة ذلك الصول الذي جاءني بالأمس يحمل القارعة... نفس الطول والعرض والملامح... يشبه أيضا الرجل الذي جاء قبله ويشبه أيضا من سيجيء بعده... نفس اللون أيضا وذات الوزن وعين السحنة... أود أن أمد يدي لأتحسسه... لأستيقن أنه من لحم ودم وعظام... أنه ليس كتلك الحيوانات المعلقة في أبهاء قصري مجرد جلد محنط ومحشو بالقش أو أن عظامه قضبان صلب وعروقه حزمة أسلاك وعضلاته ألياف صناعية وجهازه العصبي كمبيوتر حديث... اصطحبني المستنسخ البشري إلى غرفة يجلس فيها ضابط جامد الملامح... وثمة شيء مشترك بين من يعملون هنا جميعا لكنني لا أستطيع أن أدرك كنهه... .أشار الضابط إلي أن أجلس بعد أن غمغم بنصف رد علي تحيتي واعتذر لاضطراري للانتظار حتى يفرغ سيادة اللواء من مقابلة هامة...

أخذ يعبث في أزرار جهاز أمامه ... أعرف أنه جهاز كمبيوتر شديد التطور شاهدته في إحدى رحلاتي الأخيرة لأمريكا ... جهاز غير مصرح بتداوله فى الأسواق و إنما يقتصر وجوده على أجهزة المخابرات. كانت شاشة جهاز العرض التليفزيوني في مواجهته فلم استطع رؤية شيء ... حاولت أن أستشف من وجهه شيئا... معنى ... انفعالا ... أن ألتقط من حركات أصابعه كلمة أو رقما... لكن وجهه بدا جامدا وحركات أصابعه صماء كالجهاز الذي يعمل عليه ... تلكأت عيناي علي الجدران والصور... وثمة لافتة أعلي الجدار مكتوب عليها " حكام مصر منذ الاستقلال " رحت أتابع الصور... الملك فؤاد فالملك فاروق فجمال عبد الناصر فأنور السادات أما صورة حسني مبارك فكانت تعلو صور الجميع... لقد احتفظوا بولائهم تماما لكل حاكم فياله من ولاء... لكن كل حاكم أيضا احتفظ بهم... كيف... خيل لي أن الملك فاروق يغمز لي بعينه... أحملق في الأعين... أي عين منها تراقبني و أي بؤبؤ يخفي العدسة... أعدل وضع جلستي... الصور المعلقة مائلة بما يكفي لعكس المعروض علي شاشة الكمبيوتر... تعمل كالمرآة..

على شاشة الكمبيوتر صور أعرفها وصور لا أعرفها... وثمة صور أخرى لمناظر طبيعية وأشياء أخرى... هذه الصورة أملك مثلها في قصري... أم تراها هي... اشتريتها من معرض الوزير الفنان...اعتراني القلق حين توجست مما يمكن أن يحدث لو أدرك الضابط أنني أتلصص عليه و أنني لا أحدق في الصور فقط بل في المنعكس من شاشة الكمبيوتر عليها... أخذت أقلب عيني في أرجاء الحجرة... لاحظت فجأة أن الخيالات المنعكسة من علي شاشة الكمبيوتر علي الزجاج المغطي للصور أعلي الضابط تنعكس أيضا علي الزجاج اللامع للصور المرصوصة في جوانب الحجرة ... أدركت بعد الدهشة أن الجدار خلفي يحمل مرآة كبيرة في مواجهة صور حكام مصر منذ الاستقلال

و أنها تتكفل بعكس الصور علي كل سطح مصقول في الغرفة... أرى عشرات الانعكاسات لي كأنها مستنسخات... تجري الكلمات ثم تعقبها صور ... أدركت فجأة أن المعروض علي شاشة الكمبيوتر يتعلق بي.

هاهي ذي صورتي ولا ريب... أمحص النظر... يا إلهي ... كيف استطاعوا تصويري في هذا الموقف ؟ موقف آخر... يا للخزى ... في فترة من حياتي كانت هذه هي طريقتي في فتح الأبواب المغلقة ... أتساءل في دهشة... في ذهول وذعر منذ متي وهم يسجلون علي مثل هذه الأشياء ... علي الشاشة صورتي مع ذلك المسئول، أوقع علي شيء ما ... آه ... تذكرت ... كان شيكا لحسابه السري في الخارج ... تتالت الصور... ذلك الطاهي أيضا ... سكرتيري... زوجتي... ناجي... صورتي في فندق في أوربا و أخري في أمريكا... يا إلهي... سكرتيراتي... واحدة واحدة... يا للعار... يا إلهي يا إلهي... حتى ذلك الموقف الذي قلت لنفسي حين حدث أن أحدا في الوجود لن يعرفه... و لن يواجهني به إلا الله يوم القيامة... كل شيء كل شيء... فجأة اندلقت من عيني دمعة... دون ألم ودون إحساس... كما تنسكب قطرات الدم من جسد مخدر...

كبحت دمعات أخرى و أنا أرقب من خلال الدمعة الأولي صورة أمي... لا تندهش إذا انعكست صورتك علي المرايا جنينا أو إذا رأيت الآن لحظة الإخصاب التي أتت بك إلى هذا الوجود... لا ترتيب زمنيا في عرض الصور... تبدو الآن صورتي و اقفا أعلي برج النيل أكاد أراود الانتحار ويراودني... صورتي بالقرب من السفارة الإسرائيلية وذلك المشهد الأليم في الصحراء مع ميسور ماضي... أخذت انكمش في مقعدي يغرقني الخجل ويسحقني الرعب ... طفقت أردد لنفسي : إنهم يعرفون كل شيء... كل شيء ... وبأقوى الأدلة... ستصادر ثروتي وقد أواجه حكما بالإعدام أما الفضائح فحدث ولا حرج... لن يحتاجوا لاختلاق الكثير...

أرتجف ... كل شيء يرتجف معي... وتبدو صورتي الحية خلال صورتي المسجلة... صورتي خلال فترات مختلفة من حياتي ... خلال مئات العمليات التي كنت أخفيها حتى عن أقرب المقربين ... ماض كامل كنت أحاول إعدامه فيا للسخرية ... إنه موجود بكامله... وعند من ؟؟!! ... فيم كان الحرص إذن علي الإخفاء... وممن كنت أخفي ... إنهم يعرفون كل شيء.

(١٤)

أقلب نظري في الصور... بدت عينا فاروق كما لو كانتا ترمقاني بشماتة... تطاير الشرر من عيني عبد الناصر... وبدت ملامح السادات مشفقة متعاطفة ... هتف به قلبي لماذا لم تكمل علينا مكرمتك وتلغي مباحث أمن الوطن أيضا ... لماذا لم تأخذ كل هذه الشرائط لتحرقها هي الأخرى في أكبر ميدان... أخذت أبذل قصارى جهدي كي لا تنم خلجاتي عما بي ... كي لا أسقط مغشيا علي ...

دخل أحد الموظفين ليهمس في أذن الضباط شيئا لم أتبينه فقام لفوره مغادرا الحجرة ... تركني في الغرفة وحدي في مواجهة صورتي المنعكستين علي سطح الصور، برنامج الكمبيوتر ما يزال يعمل وما تزال الصور تجري...

هذه هي إيفيلين في موقف النهاية... لقد صوروا المشاهد كاملة... أين وكيف وضعوا كل ذلك العدد من كاميرات التصوير؟؟

كانت قد استدعتني علي عجل... لم تكن هي إيفيلين التي أعرفها... كانت نمرة هائجة متوحشة... حاولت أن أهدئها كي أفهم منها وهي لا تكف عن السباب تتداخل حروفها فلا أكاد أفقه منها شيئا وتعجز العربية عن مجاراة انفعالها فتخلطها بالإنجليزية برطانة لا أفهمها... فهمت أخيرا أنها اصطحبت طفليها في الصباح للسفر لكنهم أخبروها في المطار أن الطفلين ممنوعان من السفر فهرعت إلي المحامي الذي أجري اتصالاته فعلم أن أحد أقرباء ناجي قد رفع دعوى قضائية بالوصاية علي الطفلين ومنعهما من السفر... كانت حجته كما أخبرها المحامي المحافظة على دين الطفلين وعلي حياتهما في وطنهما أما الحقيقية فثروة أبيهما التي أفرج عنها بعد حكم البراءة.

راحت تصرخ وقد تحلل لون بشرتها الأبيض إلي ألوان الطيف :

- مستر هاشم... أي دين وأي وطن... هل تظنون حقا أن لكم دينا ووطنا... أنتم لستم سوي مسوخ بشرية... يا حثالة العالم.

كانت تروح وتجيء وتدخل الغرف وتخرج منها وتستعمل التليفون وتأمر بإعادة تشغيل السيارة المرفوعة و تؤكد علي إلغاء تعليمات الأمس ولا تكف عن الصراخ :

- لقد قتلتم ناجي ولن أبقي حتى تقتلوني و تقتلون الطفلين أيضا... كنت أنوي أن أعود بالطفلين في الإجازات حتى لا تنقطع صلتهم بوطن أبيهم... لا ... لن أعود قط...

ليس هذا وطناً بل غابة...أما أنتم فمجموعة من الحيو انات الضواري.

كانت تبكي وتصرخ وتتكلم في نفس الوقت :

- هتلر وضعكم فوق القرود بدرجتين... كان مخطئا...

انخفض صوتها قليلا فأملت أن تهدأ لكنها واصلت :

- حاولت أن أحب هذا الوطن من أجل ناجي... حاولت أن ألتمس العذر لكل خطأ وأن أتفهم كل قصور ... أن أعتبر الهز ائم انتصارات والجهل علما عرقلته الظروف والحاضر الوضيع فترة قصيرة شاذة في تاريخ من المجد... حاولت أن أقهر عقلي ليقتنع بما لا يقنع... مياه ملوثة وهواء ملوث و أناس ملوثون و أوطان ملوثة وحكومات ملوثة وتاريخ ملوث... مستر هاشم... مياه المجاري لا تختلط بمياه النيل فقط بل تختلط بالدماء في عروقكم... لا تعتذر لهم ولا عنهم مستر هاشم... لقد ظل ناجي يعتذر لهم حتى قتلوه... ليست مشكلتكم في تاريخكم ولا في أعدائكم ولا في حكامكم... آسفة مستر هاشم... مشكلتكم فيكم أنتم .

وهي تخرج من إحدى الحجرات صرخت :

- هل تعلم ماذا أتمني الآن... أن يدخل عليكم الإسرائيليون... يكتسحوا بلادكم التي تستحق أن تحرق كي تتطهر منكم فلستم سوي حشرات ضارة ... حقيرة... أرجو أن يهزموكم دائما... أن يقتلوكم جميعا بعد أن يرغموكم علي حفر قبوركم كما فعلوا بكم من قبل وكما أود أن يفعلوا دائما...

كنت ألتزم الصمت المطبق حتى تنتهي نوبتها الهستيرية لكنها لم تنته... انطلق منها ما يشبه الضحك المختلط بالصراخ:

- لن أذرف الدموع مرة أخري علي نكساتكم وهزائمكم وخيباتكم واغتصاب نسائكم وهوانكم في كل فجاج الأرض... لن أحس مرة أخري بالخجل الذي كنت أحسه أمام ناجي مما يفعله قومي بقومكم... أتمني أن يفعلوا بكم ما فعلوه في البوسنة بل في صابرا وشاتيلا ودير ياسين ... آسفة مستر هاشم... يقولون أن الطفلين يجب أن يكونا مسلمين مثل أبيهم... إذا كنتم مسلمين حقا فسوف أنشئهم يهودا أو سأجعلهم يعبدون النار أو الشيطان ولن يكونوا أسوأ منكم...لكنني أعتقد أنكم لستم مسلمين على الإطلاق... لا أعرف الكثير عن دينكم.. لكنه إن كان مثلكم فإنني أعجب كيف يمكن أن يؤمن به أى واحد فى هذا العالم...

ثم همست وكأنما تستدرك:

- - وناجى فى السجن.. فى السجن فقط .. علمت منه بعض الأشياء عن الإسلام.. كان مبهوراً وهو يحدثنى... هو الذى لم ينبهر أبدا كان مبهورا عند ذاك... قال لى أنه اكتشف أعظم اكتشاف فى حياته... الإيمان... فهل كانت هلاوس السجن هى ما دفعته لذلك؟.. لقد طلب منى يومها كما لو كانت وصية أن يظل الأطفال مسلمين مهما حدث... وكأنه كان يعرف ما سيحدث...

سوف أنفذ وصيته لكن بعد أن أكتشف ما اكتشف... لأنى إن أنشأتهم مسلمين كإسلامكم فإننى بهذا أخون وصيته..

تحدثت فى الهاتف... تخيلت أن الاسم الذى نطقت به اسماً يهودياً وتصورت أنها تهاتف السفارة الإسرائيلية...

بعد قليل عادت إلىّ لتواصل:

- ناجي المسكين كان يخفي عني حقيقة ما يحدث... الآن أعرف كل شيء... ولا عذر لكم ولا مبرر ولا فهم... مستر هاشم... إن كنت تستطيع أن تساعدني فساعدني... و إن لم تو افق فسوف أفهم هذا... فأنت لم تساعد ناجي أيضا... لا أحد منكم يستطيع أن يساعد أحدا... لا يستطيع الحيوان أن يساعد إنساناً... و أنتم لستم سوي قطيع من الخنازير ينتظر الذبح... وستذبحون... لكنني لست مثلكم... ولا طفلاي أيضا منكم... هل تعرف ماذا سأفعل عندما أذهب إلي هناك... سأنقل جثة ناجي من أرضكم ... فناجي أيضا ليس منكم ... هل تظن أحدا منكم سيجرؤ علي الاعتراض... لا... سترغمون صاغرين علي تنفيذ طلباتي... بل أوامري ... من هناك لن يكون رجاء بل أمراً... أيها العبيد الذين لا يستطيعون الحياة دون سيد يذلهم ويقهرهم ويهينهم ويغتصب نساءهم... ها... عندما تعيشون دون هذا السيد تقتلون أنتم بعضكم البعض...

لم تكن حريصة علي أن أسمع ما تقول... كانت تواصل الكلام وهي داخل غرف بعيدة عني حيث لا أسمع إلا همهمة وكلمات مضغومة... فجأة جاءت لتجلس في مقابلي... الأحمر من ألوان الطيف يغلب الآن علي وجهها الغارق في الدموع... انقلبت سحنتها وتغيرت ملامحها... لكأنها شخص آخر... في تناقض صارخ مع كل ما يحدث وما تقول بدا كما لو كانت توشك علي الانفجار في الضحك... لكن حديثها لم يكن كذلك :

- أنت لا تعرف ماذا فعلت طوال الأعوام الماضية... لم أترك مسئولا إلا وقابلته... كل من ظننت أنهم يستطيعون مساعدة ناجي... مهما قلت لك لن تعرف... لن تحس... لن تقدر... أي عذاب... ماذا فعلوا بي... حتى وبطني منتفخ بالحمل في الطفلين الأخيرين لم يتورعوا...

ترددت قليلا ثم أردفت في اشمئزاز ناظرة إلي اللاشئ.

- عقول فارغة... كل واحد منهم... مخه بين فخذيه وخصيتاه في جمجمته... بلا استثناء... لا يفكرون في شيء آخر...

ابتسمت في مرارة عتاب بدا أنه غير موجه لأي شخص لأنه أكبر من كل حدث، عتاب بدا أن جذوره تمتد خلف لمعة عينيها لا إلي عام مضي أو عامين، ولا حتى إلي مجرد أعوام عمرها كله بل إلي أبعد بكثير، حيث انطلق صوتها كشلال من الألم والسخرية والضحك والبكاء:

- لماذا لم تطلب أنت الآخر بنصيبك من جسدي... ثمن وقوفك أحيانا مع ناجي... لماذا لم تتقدم للزواج مني كذلك الرجل الذي منعني اليوم من السفر... ليس لوجه الله كما ادعي بل لوجه الشيطان...

تحولت نحوي فجأة بنظرات تتوهج بالغضب :

الذي لا أفهمه أبدا... لن أستطيع فهمه... لماذا استسلم لهم ناجي... لماذا تركهم يفعلون به ما يشاءون... دون مقاومة... لماذا... لو حدث له ما حدث في بلادنا لأشعل الولايات كلها من الشمال إلي الجنوب ومن الشرق إلي الغرب... لذهب ليحطم تمثال الحرية... لأسقطت قضيته الحزب والحكومة والرئيس ... لكن... هذا لا يمكن أن يحدث في بلادنا... قل لي مستر هاشم... لماذا أنتم هكذا... أثناء تجوالي وحضور المحاكمات أدركت أن ما حدث لناجي ليس شاذا في بلادكم... بل هو القاعدة... لماذا تستسلمون كل هذا الاستسلام... لماذا تتعايشون مع كل هذا الظلم... اللا منطقي... عندما عجز ناجي عن

الإخفاء و انتهت كل حججه للتفسير وكل محاولاته للتبرير قال لي أن كل ذلك بسبب تخلف نظم حكم و حكام طغاة منذ ما قبل التاريخ حتى الآن مروراً بالفراعنة... لم أقتنع مستر هاشم... لأن أمما أخري مزقت حكامها عندما طغوا... علقتهم على المشانق وتركت جثثهم تنهشها الكلاب... قتلتهم فعاشت... لا مستر هاشم... لا تقل لي أنه بسبب ما تفعله بلادنا بكم... ولا بسبب حكامكم... المشكلة فيكم أنتم... و أنتم تستحقونه... من لا يستطيع المحافظة علي كرامته و إنسانيته لا يستحق أن يعيش... تستطيعون أن تتسولوا منا القمح والدولارات لكن الكرامة لا تُتَسول... يالكم من شعوب غريبة ونظم غريبة... لا تقل ذلك إذن...

لم أكن قد قلت شيئا... ولو قلت لما سمعتني .

- هل تعرف يا مستر علي كيف حصل ناجي علي البراءة... إنني أشك أنه فهم... أنه أحس... و أن ذلك كان سببا في عدم فرحته بحكم البراءة... وفي موته وفيما حدث له قبل موته... طوال الأعوام الأخيرة... كلما ذهبت إلي مسئول لإقناعه بالتدخل لإنقاذ ناجي حاول إقناعي بأن أسلمه نفسي... كانوا يدركون أنني ضعيفة ومحاصرة في دائرة مغلقة و أنني لو شكوت ما يفعلونه أو بحت به لاستطاعوا بسهولة اتهامي بالكذب... مرة واحدة أخطأت وحكيت لناجي... توسل إلي أن آخذ الطفلين و أسافر ... رفضت فثار ثم غلبه اليأس والقهر وبكي ثم صمت... في الشهر الأخير له في السجن كدت أجن والرجل المهم يلاحقني... كان أشهى ما يقدم إليه جسد امرأة مذعورة... كان واضحا... جسدك مقابل البراءة... و لطول ما عايشتكم كنت أعرف أنه يعني ما يقول و أنه قادر عليه... و أقنعت نفسي أنني مستعدة لكل شيء مقابل إنقاذ ناجي... وإذا كان هو السبيل الوحيد فلأفترض أنني سقطت في بالوعة مجاري و سوف أزيل آثارها القذرة بالاغتسال بماء بلادي...

هكذا حصل ناجي علي البراءة يا مستر علي... هل تذكر ليلة الإفراج عن ناجي حين تركتك في المنزل... كان علي أن أذهب إليه لأبصق في وجهه كواجب أخير قبل مغادرة بلادكم ... لم يتأثر... ضحك ساخرا و هو يقول : " لكنك ستعودين إلي...حتما ستعودين... "...

كان الذهول يغمرني... وواصلت هي الصراخ :

- هل أعود إليه الآن كي يسمحوا لي ولأولادي بالسفر؟!.

جثم علينا صمت وحشي... وددت أن أعتذر لها وللعالم عما حدث لها ولزوجها... أن أقول لها أن الأمور لا تسير كلها علي هذا النحو... لكنها قطعت الصمت :

- سأسافر اليوم يا مستر هاشم... سأسافر... سأقتل من يمنعني ولو اضطررت لنسفكم جميعا... ها... أنا الحمقاء كنت أعارض سياسة بلادي... بلادي المتحضرة الراقية مع العراق وليبيا... كنت أوقع علي كل وثيقة تطالب برفع الحصار... ... كنت حزينة من أجل الأطفال الذين يموتون جوعا والمرضى... عندما أعود... إلي البلاد التي يعيش فيها بشر سوف أناضل كي يفعلوا ببلادكم نفس الشيء... بكل بلادكم... يجب أن ننظف العالم منكم... مستر هاشم ... هذه هي مفاتيح الشقة ... في الأوراق ستجد ما عليك أن تفعله... بع كل شيء واستعن بالسفير إن واجهتك مشكلة وسلمه النقود... سوف آخذ الطفلين الآن... سوف أغادر هذا المستنقع الذي تسمونه وطنا... سأتجه بالسيارة لأقتحم نقاط الحدود إلي إسرائيل ومنها إلي بلادي... هناك سأجد من يفهم ويستجيب ويعاقب... لن يقدر علي منعي أحد...

لماذا لم يعد الضابط ؟؟

هل يحاسبونني الآن علي عدم إبلاغهم بكل هذا... لكنها كانت مسكينة أصابها الانهيار ولم تكن تعقل ما تقول ولم أكن أستطيع إكراما لناجي أن أفعل شيئا...

أنزع نفسي من طوفان الذكريات و أفكر بحالي... بمصيبتي... بما يمكن أن يحدث لي... أنا بشريا إيفيلين... لست خنزيرا ولا ذبابة...

هل تحيط بي الآن خيوط العنكبوت... هل تنهشنى الكلاب المدربة أم يحملني الجواد المجنح إلي جحيم لا أحيا فيه ولا أموت ؟...

تخور قواي... .

أشعر أنني سأفقد الوعي...

ماذا سيفعلون بي ؟

لماذا يريدونني هنا... في مباحث أمن الوطن ؟.

يتردد السؤال في أرجاء نفسي كما لو كنت ألقيه أول مرة...

فـجــأة ...

فـجــأة... وعلي حين غرة تماما احتكت فكرة بفكرة في رأسي فالتمع نور باهر ساطع كضوء البرق ... التمع واستمر ولم يختف... كيف ولد الأمل من اليأس والأمن من الخوف؟... ليس ذلك مهما الآن... إنهم يعرفون كل شيء وما داموا يعرفون كل شيء ولم يفعلوا حتى الآن شيئا فلا خوف إذن ولا خطر... إنهم يعرفون ما فعلته فعلا وهو كثير يغنيهم عن اتهامي بما لم أفعله... ومعلوماتهم دقيقة بحيث لا يمكن أن يتسرب إليها شك أو يعتورها ريب وقد فات أوان العقاب عليها... وعندما يفوت أوان العقاب لا يكون هناك مجال لعقاب جديد لمن كان في مثل وضعي... فلست كبيرا للدرجة التي أكون بها خطرا علي الكبار ولا صغيرا حتى أُداس مع الصغار... إنهم يعرفون كل شيء ومعني ذلك أنهم يعرفون - مثلا - أنني لم أكن صادقا عندما أقسمت أيمانا

مغلظة للعشرات من كبار المسئولين أن جميع وحدات برج النيل قد نفدت... أخفيت ذلك عن الجميع ... حتى سكرتيري نفسه لا يعرف ... لكن الأمر ليس صغيرا بحيث يقتصر علي هذا... الأمر أكبر من هذا بكثير... أكبر من حكايتي مع ناجي ومع الدكتور حمدي و أبوه وحتى مع رجل دمياط الذي غاب عني اسمه ... ثم أن هذه الأحداث كلها في صفي... لقد تقبلت كل ما حدث دون أي اعتراض أو إدانة ... لم أتدخل فيما لا يعنيني وتركت ما لقيصر لقيصر... كيف لم أفطن إلي أن أحداث حياتي ترشحني للوزارة... لقد قالها الرجل في الروتاري... كان مخمورا لكنه لم يكذب... كان يتكلم عما عرفه فعلا... كيف لم أفطن لهذا؟!... لو أنهم أرادوك أيها الأحمق الغبي المسكين لاتهامك أو لعقابك لما كان اللواء حسين بركة هو الذي يقابلك... لم يكونوا ليكتبوا أي اسم فأسماؤهم ومناصبهم تدخل في إطار الأسرار الكبرى... أما استقبال سيادة اللواء نفسه لك فللبشارة ثم لكي تعرف حين تتولى منصبك الجديد من يحكم... وما تأخره حتى الآن في استقبالك سوي مداعبة لم يستطع منع نفسه من الاستمتاع بها...

ثم أن من رتب وضع الصور والمرآة والكمبيوتر لم يفعل ذلك عبثا ... أقاوم الآن إحساسا طاغيا للانفجار في الضحك... تبدو لي وساوس الأمس كأكبر مفارقة حاقت بي في حياتي ... لو أنني فهمت أن الأمر ليس إلا ذلك لهان ... بل لطاب ... ينقشع الدوار وتجتاح النشوة الخوف والذهول وتكتسح الرغبة العارمة في الحياة الموت...

الآن أضع حجر الأساس لأهم مشروع شرعت فيه واليوم أغرس أكبر شجرة غرستها في حياتي... والغرس الذي سأغرسه اليوم سوف يثمر اليوم وغدا ... أما في الغد فقد يلجأ إلى ميسور ماضي و من هم أكبر منه طالبين

الحماية... مكان المقاول الأول في البلد شاغر منذ سنوات ولا يحق له أن يكون كذلك ... الآن يناديني ... فكيف لم أفطن...؟؟

لماذا افترضت أنني استدعيت هنا لأنني متهم... أنا واحد من أهم رجال الأعمال في الوطن فلماذا لم أتوقع أن ذلك الاستدعاء مجرد تمهيد لتعييني وزيرا أو رئيسا لهيئة استثمار أو حتى رئيسا للوزراء... لدي كل المواهب وكل الصفات ولست خطرا علي الإطلاق أنا الرجل المناسب في المكان المناسب وليس من المتصور أن أرشح لمكان كهذا دون مرور بمباحث أمن الوطن... ملائكة الوطن وحراسه ...

تتسرب إلي قوتي التي ضاعت ... حيويتي التي افتقدتها منذ الأمس ... أستعيد شخصيتي ... ذكاء رجل الأعمال ودماثته وبراعته ... عندما دخل علي الضابط ليصحبني إلى اللواء حسين بركة قمت معه مليئا بالثقة و أنا أحدث نفسي أنني أخطو الخطوات الأولي من عالم الرعاع والدهماء إلي عالم الكبار والنبلاء ... وكنت أشعر أنني أولد من جديد .

دكتور محمد عباس

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017